عاصفة فوق مصر

قصة اجتماعية

بقلم

عصام الدين حفنى ناصف

الطبعة الأولى

وقدرها ١٠٠٠ نسخة

الثمن ٢٠ مليما

١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

مطبعة فى الفل بشارع الفلكى ت ٤٢٢٠٤

عاصفة فوق مصر

قصة اجتماعية

بقلم

عصام الدين حفني ناصف

الطبعة الأولى

وقدرها ١٠٠٠ نسخة

١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

مطبعة فتى النيل بشارع الفلكي ت ٤-٢٢٢٤

تقدمة

هذه قصة مصرية فى جوها وأشخاصها ، عالمية فى مشاكلها وفلسفتها ، وقعت حوادثها إبان الأزمة الاقتصادية التى خيمت على مصر والعالم فى الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٢٩ ولم تخف وطأتها قليلا فى سنة ١٩٣٧ الا ريثما اتصلت بها أزمة جديدة ماتزال جاثمة فوق العالم فى انتظار الحرب

كانت الصحف المصرية فى تلك السنوات تذيع الكثير من حوادث قتل نظار الزراعات ، فرأيت أثناء اقامتى فى الريف أن أدرس الدوافع الحقيقية لهذه المصادمات الدموية التى هى وليدة فوضى اجتماعية لا سبيل الى انهائها بغير انهاء أسبابها

وشخصية ناظر الزراعة هى شخصية نموذجية لها مثيل فى أكثر أوساطنا ، فلو غيرنا مناظر هذه القصة وأشخاص أبطالها لأمكن ابرازها بأشخاص آخرين فى مناظر جديدة ، دون تغيير جوهرها

وليست هذه القصة وليدة موهبة فذة أوخيال محلق أو شاعرية مرهفة ، فقد كان فى وسع أى شرطى ممن ألفوا تدوين المحاضر أن يكتبها بعينها لو أنه كلف بكتابة محضر بسير الأحوال فى أية قرية مصرية

ولست ـ بما سبق ـ راغباً فى أن أغمط هذه القصة بعض قيمتها ، فقد تكون رائعة وإن كان واضعها ، أو على الأصح « جامعها » غير رائع ، فهى صنعة لا تدل على صانع ، بل هى بضاعة لا صنعة فيها ، وهذا هو عيبها الأساسى ، ولعله أيضاً ميزتها الكبرى ، فقد غدا الناس فى هذا الوقت الذى طغت فيه سيول الأكاذيب أحوج مايكونون الى حديث صادق ومحدث صادق

المؤلف

صفر ١٣٥٨
أبريل ١٩٣٩

١
ثروة وسيادة

فى شرفة من شرفات ذلك القصر القروى الذى اكتسب صفة السموق بمجاورته لبيوت البلدة الوضيعة المشيد أفضلها باللبن ، والذى يتألف من مجموعة أبنية منفصلة مختلفة الألوان خالية من الجمال مبعثرة فى غير تناسق داخل السور المرتفع الموحش الذى يوحى إلى النفس كآبة وغماً ، وقف « مظهر باشا » رب القصر و « سيد البلدة » وعميد تلك الأسرة التى اعترفت بها الدولة اعترافا رسمياً حين سمت البلدة كلها « قصر مظهر » وشرع يجيل نظرة فى شتى أبنية القصر مستذكراً المناسبات التى بنى فيها كلا منها ، فقد أقيم كل بناء منها فى سنة من سنى الرخاء فأصبح عددها معلناً فى دقة حسابية عن عدد تلك السنوات الرغدة التى مرت بصاحبها كما يعلن عدد نساء الفلاح المطلقات والباقيات فى عصمته عن عدد السنوات التى كانت فيها زراعته رابحة مباركة ، ثم انثنى يسرح الطرف فى اراضيه المنبسطة إلى آخر مدى ماتبصر العين من خضرة ، والجبال تحيط بها من جميع الجهات إلا جهة المحطة ، فكان يملؤه الزهو والشعور القوى بأنه صاحب الأمر المطلق فى البلدة ، فهو يستطيع أن يذل من أهلها من يشاء وأن يعز من يشاء ، أن يخفض ويرفع وأن يفقر ويغنى ، أن يسحق من يجسر على الوقوف فى وجهه وأن يستمتع بأية امرأة تروقه . ان نفوذه فى هذه البلدة ليتضاءل بجانبه نفوذ ملك فى مملكته ، فكأنه أمير إقطاعية من إقطاعيات القرون الوسطى نسيها الزمان ونام عنها نومته عن أهل الكهف ، ثم نفض عنه الكرى فى عهد مظهر باشا فاذا بهذه البلدة ماتزال فى هذا العصر الحديث محتفظة بمبانيها القديمة وأزياء أهلها القديمة وأدواتهم الزراعية القديمة وعاداتهم القديمة وتفكيرهم القديم

وكان « صالح » يقترب من القصر لسماع خطبة مفتش التعاون نزولا على ارادة العمدة ، وصالح هذا فلاح بائس لا يكاد يجد قوته لولا ما يدخره بشق النفس من

أجر اعمال متقطعة يقوم بها فى مواسم العزق والحصاد . كان يتطلع إلى القصر عابسا متجهما ثم يرمق الحقول فى غير اكتراث ، متمنيا لو أتيحت له الهجرة من البلدة ، بيد أن نظره كان يرتد حسيراً إذ يصطدم بتلك الجبال المترامية المحدقة بالبلدة كأنها أسوار سجن يخيل إليه الا فكاك منه . لقد كان العالم بالنسبة له لايعدو تلك الأسوار .

وازداد شعور صالح بهوان شأنه عند ماولج باب القصر فوقعت عيناه أول ما وقعتا على عدد من العبيد ، وهم الذين جلبهم الباشا الى خدمته حين توطدت مكانته المالية ليتوج نجاحه فى جمع المال باصطناع مظاهر الامارة ، شأن محدثى النعمة والثراء ، فأن أسرة مظهر باشا كمثيلاتها من الأسر المصرية الثرية حديثة عهد بالغنى والجاه ، وقد كانت قبل عشرات قليلة من السنين اسرة وسطا ليست من أمثل الأسر ولا من أوكسها ، وكان أفرادها يعملون فى الزراعة وكانوا بوجه عام مجدين فى عملهم فعاشوا عيشة لا بأس بها ، فأن الجد مع الشرف يعصم من الفقر وان كان لا يخلق غنى . وهذا ما أدركه مظهر باشا فكان هذا الأدراك سر نجاحه كما كان وكما سيكون سر نجاح غيره من الناجحين

رأى الشاب مظهر أن يختصر السبيل الى الغنى فترك الطريق الطويلة المجهدة التى يتعثر فيها أولئك الذين يصدقون مايلقنون ، وظل مترصدا يعمل بحذر حتى واتته الفرصة فسلك الطريق القصيرة المعبدة ، وسرعان ما بلغ غايته : الغنى والجاه ، واحترام الناس وتبجيلهم ومديحهم ، وامتداد نفوذه وسطوته وانبساط سيادته . ذلك كله هو الحياة

وقد تضافر ذكاؤه وكفايته وحظه ، على فتح أبواب الرزق أمامه فى الحياة بيد أن الفضل الأكبر فى اطراد صعود نجمه إنما يرجع الى مهارته فى اقتناص الفرص وإقدامه بمنتهى العزم والتصميم على تخطى وساوس الضمير الحساس والى عدم تعثره بعقبات الفضائل والمبادىء الخلقية المقررة ، فقد كان لايتورع عن اتيان امر يرى له فيه مصلحة

ولم يكن الرجل يخلومن طيبة قلب وكانت، هذه الطيبة تسلس له قياد المزارعين وتعينه فى بعض الأحيان على القيام بالتافه من أعمال الخير ، وكان يحسن استغــلال ما عرف عنه من الطيبة ويتقن الظهور بمظهر المحسن الشفيق . وقد حبته الطبيعه هيئة صالحة لأداء هذا الدور ، فقد كان طويل الجسم عريض المنكبين كث الحاجبين أجش الصوت . وكان الشيب قد وخط رأسه أما بشرته فقد كانت سمراء الا أنها أضحت بعد الهزال الذى أصابه تبدو أقتم من حقيقتها . فقد كان البـاشا فى شبابه بديناً متكرش البطن شأن أمثاله من أعيان الريف قبل الحرب إذ يعتبرون البدانة مقياسا للبحبوحة والرفاهة ، فلما أصيب من انبطنة بداء السكر وهدت العلة قواه اضمحل جسده وضمر بطنه ، ولـكن جلده العجوز كان قد فقد قابليته للانـكماش وأصبح كالثوب الفضفاض يلبسه شخص أنحف من صاحبه

أما نقائصه فلم تكن نقائص شخصية صادرة من ذات نفسه بقدر ماكانت مستمدة من عيوب الطبقة التى رضيته عضواً من أعضائها . نعم إن هــذه النقائص قد ظهرت فيه قبل احرازه الغنى ، بيد أنه كان فى صميم نفسه قد قرر الانتماء الى هــذه الطبقــة فرأى أن التحلى بعيوبهــا هــو أول شرط للاندماج فيها ، بل هو بمثابة قطع ثلاثة أرباع الطريق . ولقد صدق حدسه وصح حسابه ، فتسنم ذروتى الثروة والجاه وحده دون سـائر مزارعى البـلدة ، لا لأنه أحدهم ذكاء أو أكثرهم اجتهاداً أو أعلمهم بشئون الزراعةولـكن لأنه أقلهم تقيداً بالخلق القويم وأبعدهم عن الايمان بالفضائل والواجبات الدينية والأدبية ،وفى الوقت نفسه أكثرهم تظاهراً بها وإعلانا لها

كانت مزاياه هــذه كفيلة له بالنجاح حتى فى الظروف المـألوفة ، ولـكن ظرفا استثنائيا قيض له فجعل هذا النجاح سريعاً فائقا . ولقد عرف المزارع «مظهر» كيف يغتنم الفرصة ، والفرص كثيرة السنوح ولـكن جمهرة الناس لا يغتنمونهـا لأنهم لا يكونون متهيئين لاغتنامها ، وإنها لوشيكة الزوال كالنافذة فى السماء تنفتح لحظة ليلة القدر وفى مثل لمحة البرق تغلق

طرحت أطيان الدائرة السنية للبيع ووفاء ثمنها أقساطاً ، وأعلن أن صغار المزارعين من أهل البلاد التى تقع بها الأطيان يفضلون على كبار الزراع ، فتقدم المزارع «مظهر» طالباً شراء ألف فدان ، واتفق مع عمدة البلدة فجعل هذا يطوف بالزراع يستدرجهم للتوقيع على ورقة أوهمهم أنها خاصة بشأن من الشئون ، وكان قد كتب فيها للدائرة السنية على لسانهم أنهم غير راغبين فى شراءشيء من أطيانها .
وهكذا فاز مظهر بالصفقة الرابحة فاشترى الألف فدان بثمن بخس دفع منه مبلغا زهيداً ونجم باقيه على آجال يستنفد انتظارها صبر أيوب . فلما علم أهل البلدة بما كان بعد أن أصبح أمراً واقعا لاحيلة لهم فى دفعة تولاهم الغيظ ، فراح يلاينهم ويخادعهم ويبالغ لهم فى وصف مصاعب المعاملة مع الحكومة والمصارف المالية الأجنبية ويذكرهم أن الدين هم بالليل ومذلة بالنهار ويخوفهم عجرفة الصيارفةوتوقيع المحضرين الحجز على المحصولات وحماية المحاكم المختلطة وجيش الاحتلال لهم ، ثم يعقب على ذلك بزعمه أنه أوتى قدرة خاصة على مداهنة القوم ومعرفة بأساليب رشوة الموظفين وبراعة فى التذلل للكتاب ومناداته بلقب السيادة حتى يقضى منه حاجته، وانه لهذا قبل أن يخلصهم جميعامن هذه المهانة والغطرسةوالسماجة ورضى أن يجعل نفسه كبش الفداء — عن أهل البلدة ، فيحرزباسمه هذه الأرض لتكفيهم جميعا وينوء وحده بالمتاعب الناشئة عن ملكيتها على أن يتمتعوا هم بها كما لو كانت ملكا لهم ، وذلك مقابل جعل زهيد يستعين به على تسديد الأقساط الضئيلة

ولم يملك القوم الا أن يقتنعوا ويقنعوا بل أن يمروا بما بذله « المخلص » فى سبيل راحتهم . وجعل المخلص يشترى باقى أطيان الدائرة التى تطرح للبيع فى تلك الناحية صفقة بعد صفقة ، يدفع ثمن كل صفقة لاحقة منها ، من المال الذى يرهن به الصفقة السابقة . وكان يرهنها بأضعاف ثمنها مستعينا على ذلك برشوة مندوبى المصارف المالية إن كانوا ممن ينفعون وينتفعون أو على تضليلهم والتغرير بهم بوساطة الأعوان يرشدونهم الى أراض أخرى أجود نوعا واغلى ثمنا باعتبار كونها هى الأرض التى قدموا لمعاينتهاوتقدير قيمتها. وجنىالمزارعون فى السنوات الأولى

ارباحا عظيمة ، وتغاضى مظهر عن وفرة ماربحوه ، واستناموا هم فى ظل هذا الوفر، وظل هو فى خلال غفوتهم واستنامتهم يشترى كل ماوسعه شراؤه دون أن يلقى منهم معارضا أو مقاوما ، وكانت قد تمت له السيطرة على الأهلين فشرع يرفع إيجار الأرض سنة بعد أخرى حتى أصبح المزارعـون لا يربحون من زراعتهـا إلا النزر اليسير . كانت البلدة فى ذلك الزمن أشبه بدسكرة لزواع الباشا فكان له حق طرد من يريد طرده منها . وعلى من لا يريد أن ينفى من الأرض من أبنائها أن يرتضى حكم الأشغال الشاقة فى أطيانه طول النهار وردحا من الليل أو بقاءه ماشاء الباشا ابقاءه فى عطلة عن العمل فلا يجد مرتزقا فى أطيانه ولا فى أطيـان أخرى . وقد اتسعت هذه البلدة فيما بعد واشـترى بعض سكانها أطيـانا خاصة ، ولـكن مظهر باشا ظل محتفظا بسلطـة التصرف فى شئون أهلهـا كافـة ، رجالا ونساء ، فهو يقضى بينهم أمره .

وقد وجد ان هذا التفوق فى الثروة والسيادة لا يكفى فى إيجاد التباين بينه وبين سائر الفلاحين ما لم يتبع سياسة معينة تؤدى الى اقامة سور صينى بينه وبينهم ، فجلب لخدمته تلك الحاشية الـكبيرة من العبيد السودانيين وظل يتضخم عـددهم حتى غدت لهم فى البلدة دولة كدولة مرتزقة الأتراك فى عهد الخلفاء العباسيين ، وقد تفاقم خطرهم فى النهاية حتى أصبحوا يجترئون المرة بعد الأخرى على سرقة سيدهم نفسه ، مدركين أنه مضطر لاستبقائهم إذ أنهم ملك له ، وكان الزنوج على وجه العموم راضين بعبوديتهم ، بل كثيرا ما كانوا يباهون بها أمام الفلاحين وعند تشاجرهم مع خدم سيد آخر من سادة البلاد المجاورة . وكانوا يضغطون احيانا فى اعتزاز على الياء الأولى من كلمة « سيدى » بشكل يدع المرء يتسـاءل مستنكرا : من ذا الذى عهد الى أبراهام لنكولن أن يحرر العبيد ؟

وكان من مقتضيات إيجاد التباين بينه وبين الفلاحين فى المعـاملة إشعارهم بوجود تباين بينه وبينهم فى الثقافة والمعرفة ، وإذن فليفض الباشا من معين علمـه على قاصديه المتعطشين الى النهل من ثقافته الواسعة . وكان يعتبر ذلك من أول

واجباته ويهيء نفسه لأداء هذا الواجب بتصفح الصحف والمجلات ، فتعلق بذهنه قشور مما يقرأه فيها من القشور . وكان له من الجرأة والذكاء وسرعة الخاطر ولزواره وسائليه من الجهل والاتضاع ما يجعله يجيب دون تورع وبلا تردد عن أى سؤال علمى أو أدبى أو فنى يوجه اليه ، ويبدى فى ذلك أحيانا آراء تضحك الثكالى إن كانت تلك الثكالى على شيء من العلم ، وكان بعض الحاضرين يفطنون الى ذلك بعض المرات ولكنهم كانوا يتدرعون بالصبر الجميل ويصمتون لمعرفتهم أن الصمت من لحم شهى وفاكهة لذيذة وقهوة زكية وتشرف بالجلوس فى مصطبة الباشا. لقد كانت صناعة مجالسة الباشا تتطلب من الكذب والرياء أكثر مما تقتضيه صناعة شاهد فى محكمة شرعية وكان من مقتضيات ما يدعى الباشا من العلم والثقافة والمعرفة والخبرة أن يتعامل على أساس افتراض أنه معصوم من الخطأ فالباشا لا يمكن أن يخطيء ، فأذا ثبت أن خطأ وقع منه فمسئولية الخطأ على سواه ، ومن الواجب أن يبرز سواه هذا ليتحمل مسئولية هذا الخطأ ، من الناحية الأدبية بداهة . لقد كان ذلك مفهوما لكل مستخدميه ، ولكن قبولهم تحمل هذه المسئوليات لم يكن يحدث بروح التضحية التى تدع بعض الساسة يتحملون تبعة أخطاء لم يرتكبوها فى سبيل انقاذ دولهم من حرج طاريء ، بل كانوا يقبلون نسبة الخطأ اليهم بكل امتنان لمعرفتهم أن ذلك من انجع الوسائل لنيل رضى الباشا

وكان من مقتضيات عصمته من الخطأ أن يكون المجيد فى زراعته وفى أى عمل يزاوله ، وبما أن زراعته لم تكن جيدة ، فعليه أن لا يعرض منها للعيان الا النماذج التى يصطفيها للعرض كما تفعل بعض الحكومات اذ تقود السائحين لمشاهدة أحياء معينة من بلادها ومصانع معينة فيها . ولما كانت النماذج الناجحة عنده غير كثيرة فقد كان يزيد عددها بنماذج من بنات خياله ، فينادى أحد المزارعين ويقدمه الى زواره من أبناء البلاد المجاورة باعتباره واحدا من خيرة فلاحيه واكثرهم اجتهادا، ثم يسأله : كم أنتج حقلك من القطن ؟ فيجيب أنه أنتج ستة عشر قنطارا ، فيقول

له حسنا ، انصرف . ثم ينظر الى جلسائه ويقول لهم : لقد أنتج الرجل هذا القدر من فدانين وعشرة قراريط أى بمعدل أكثر قليلا من ستة قناطير فى الفدان ، فيظهر الجميع غبطتهم وأعجابهم ، حتى الذين يعلمون ان الباشا قد بالغ كثيرا فى تخفيض مساحة الحقل

وكان يتكلف مظاهر الأمارة على نمط خاص ، فأذا ما مرت سيارة فى الطريق الزراعية شخص اليها ببصره برهة ، ثم أرسل أحد عبيده يستعلم عن راكبها ويتبين وجهته. واذا ما رأى عن بعد رجلا ممتطيا صهوة فرس سأل باهتمام : من هذا ؟ وقد اصطنع هده العادة عقب قراءته عن هارون الرشيد أنه كان كلما أبصر غبارا أرسل من يكشف له الخبر

٢

هكذا تسير الامور

أعلن العبد قدوم سيده ، ودخل الباشا فوقف الجميع وما كان لهم أن يتوانوا عن الوقوف ، فقد سخرهم القدر ليلعبوا على مسرحه دورا بعينه، محزنا أحيانا وأحيانا مضحكا ، مادحا تارة وقادحا أخرى ، متملقا آنا وآنا مستغفرا . ولكنه فى جميع الأحوال لايخرج عن دور الكلب الريفى القذر الذى يحرس القطيع ولا يحظى بأدنى تدليل من سيده ، أو دور المتسول المتضع يغير سيماء وجهه ونبرات صوته وينطق بأقوال مدرسة فلسفية معينة ليقنع المارة بشدة حاجته وشدة استغنائهم وثواب الاحسان لهم وفائدة الحسنة له

وظلت ذراع الباشا ممدودة أمامه للمصافحة من أول ولوجه الغرفة إلى أن انتهى إلى مفتش التعاون ووضع يده فى يده ، فسحر الناس لهذا التلطف يبديه سيد البلدة لمندوب الحكومة ، ثم استوى الباشا على كرسيه فكان ذلك إيذانا للفلاحين بالقعود على الأرض .

وأكب المعلم حبيب على دفاتره يقلب اوراقها فى سهوم ، واعتمد الفلاحون أذقانهم بأيديهم ، وأخرج المفتش منديله يمسح به وجهه ومابوجهه حاجة إلى المسح.

وبقى المجلس صامتا حتى أصدر الباشا أمره ببدء الاجتماع ، وذلك إذ قال : أهلا وسهلا بك ياحضرة المفتش

فانطلق المفتش يلقى موعظته وقدوجه كلامه الى الفلاحين ووجهه نحو الباشا : لقد حضرت الى بلدتكم بإسعادة الباشا لأمرهام جداً بقدرماهو سهل ميسور ، ذاك هو التحدث إلى أهل البلدة فيما يجنو نه من إنشاء جمعية تعاونية تكون لهم عو ناعلى إجراء مختلف الأعمال الزراعية والاقتصادية بأقل النفقات وأ كثر الأرباح

تعلمون حضراتكم ان اليد الواحدة لاتصفق وان الانسان يسهل عليه ان يكسر بضع عصى كل منها على حدة ولكنه يعجز عن كسرها مجتمعة ، وقد أمر الله تعالى بالتعاون فقال « وتعاونوا على البر والتقوى » وقال النبي . . .

وهنا اندفع الفلاحون يؤمنون : عليه أفضل الصلاة والسلام

فغص المفتش بريقه ، وقال مرددا : قال عليه افضل الصلاة والسلام « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . وانتم جميعا مؤمنون فيجدر بكم أن تتعاونوا ، وكيفية التعاون فى حالتكم هذه هى ان تؤسسوا هيئة يساهم كل منكم فيها بقدر من المال على قدر طاقته : جنيه ، اثنين ، ثلاثة ، عشرة ، مائة . ثم تشترون بالمبلغ المتجمع بعض الآلات اللازمة لكم فتخفضون بذلك نفقات الانتاج خفضا محسوسا فأذا افترضنا انكم ستشترون جرارة للحرث فأنكم تستطيعون بها حرث الأرض حرثا متقنا سريعا بأجر زهيد . بكم تحرثون الفدان هنا فى الوقت الحاضر ؟

وبادر صالح من بين الفلاحين يجيب : بأربعين قرشا . وقد سره قيامه بالاجابة كأنما كان السؤال موجها لشخصه

وبدأ التململ والضجر على وجه الباشا

وتابع مفتش التعاون حديثه : حسن ، فاذا اشتريتم جرارة للحرث كما أقول لكم فلن يكلفكم حرث الفدان أ كثر من ريال واحد كما هى الحال فى كفر درويش القريب منكم ، وبذلك تقتصدون نصف النفقات

فقال الباشا متبرما : جرارات ! وماحاجتهم إلى الجرارات ؟ ثم هز رأسه هزة

المجرب الخبير واردف : دعوا الفلاحين يربون بها أمهم ويأكلون خبزهم من ورأبها .
وهل لدى الفلاحين من فراغ الوقت والبال ما يشغلون معه أنفسهم فى متاعب الآلات واصلاح عطبها ومشاكسة سواقيها ؟

ولم يفهم المفتش سراً لتبرم الباشا إلى ان جاء على لسان الفلاح « على » التفسير الاقتصادى لهذا التبرم ، إذ قال : لسنا فى حاجة إلى جرارة فالدائرة تحرث لنا الأرض بوابورها . وشعر المفتش بالصدمة فلم يجد بداً من القاء سؤال كيفما اتفق ، فقال : آه ، حسن . وما الذى تقاضاه منكم فى مقابل ذلك ؟

فانبرى المعلم حبيب ينقذ موقف الدائرة فقال . وماعسى ان تتقاضى منهم ؟ وهل عندهم شىء تتقاضاه ؟ اننا نمهلهم إلى آخر العام ، والأمر بعد ذلك موكول للصدفة ، فأن كان الزارع ناجحاً فى زراعته وفى مايستحق عليه ، وان كانت السنة جدباء كالسنوات المنصرمة لم يكن ثمة مجال لأخذ شىء يذكر منه !!

ورأى المفتش أن يلين فى حديثه تحاشيا للاصطدام بمن يملكون هدم مشروعه ، فقال : حسن ، فما دام فى البلدة ما يكفيها من آلات الحرث ففى وسعكم أن تشتروا مثلا آلة لغربلة البزور ، وذلك أمر من الأهمية بمكان ، فالبزور الممتازة هى الأساس الأول للزراعة الناجحة

على انه لم يكن فى ذكره آلات الغربلة أكثر توفيقا ، فقد تصدى له المعلم حبيب ثانية يقول : أما عن البزور فنحن نعنى بها أكبر اعناية ولا نقدم للزراع الا أجودها

وهنا رأى العمدة أن يدلى هو أيضا بدلوه ، وأن يبرهن لرب البلدة أن الحكومة الممثلة فى شخصه مازالت على ولائها المعهود ، فقال يخاطب الباشكاتب بلهجة من يسحب الذيل على السفاسف والترهات : لابأس يامعلم حبيب . دعه ينهى الكلمتين اللتين جاء يقولهما فأن لدينا مشاغل أخرى

وشعر المفتش انه أمام « مناورة » محبوكة وأنه وقع بين أعداء ، فشرع يسرد ماعنده سرداً لينتهى من أداء مهمته الرسمية على أية صورة ، وكانت تتنازعه روح المشاكسة ورغبته فى الابتعاد عن هذا الجو ، فكان يهم فى بعض عباراته أن يتحرش

بهؤلاء الذين يبتون فى الأمور باعتبارهم ارباب المصالح الحقيقية فى البلدة ، ولكنه كان يعود إلى نفسه فيكبحها جهد طاقته ، ثم استرسل مستأنفا:

. . . وللجمعيات التعاونية مزايا أخرى غير خفض نفقات الانتاج ، فهى توفر لكم الأرباح التى جريتم على أن تتركوها بلا ضرورة لأولئك المتطفلين الذين يعيشون على حسابكم مثل تجارة القطن والحبوب والبيض ، فتاجر الحبوب يشترى منكم كيلة الأذرة بخمسة قروش مثلا ويخزنها عنده أربعة أشهر أو خمسة ثم يخرجها من مخزنه لبيبعها لكم ، أنتم الذين انتجتموها ، بستة قروش أو سبعة فهو يربح منكم - من غير جهد - عشرين فى المائة أو ثلاثين فى المائة فى بضعة أشهر ، أعنى ان ربحه منها يزيد على ماتصيبونه أنتم ، أنتم الذين تعبتم وشقيتم

وإنما يقتطع هو منكم هذه المبالغ الجسيمة لمجرد ان عنده بضعة جنيهات يتخذ منها رأس مال لتجارته . فاذا أنشأتم الجمعية التعاونية .

هنا برز العمدة الى الميدان ثانية ، فقد عدل عن نظريته الأولى فى ترك المفتش يقول مايقول ، ورن صوته قائلا : ولكن ياسيدنا الافندى ، التجاره غير محرمة ، وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يحترف التجارة

قال ذلك ثم نظر إلى الباشا كأنما يسأله ، ألم يحسن القيام بدفع أذى هذه الآراء الخطرة ومنع تسربها إلى أذهان الرعية ؟

فغمز الباشا له بطرف هدبه كأنما يقول : أنا منتبه لم تفتنى فائتة

وأحس المفتش باشمئزاز يستحوذ عليه وازداد رغبة فى مهاجمة هذه العصابة الجالسة من حوله فقال : نعم كان النبي يتجر ، فيرحل إلى الشام لحساب زوجته يحمل اليها محصولات جزيرة العرب ويعود منها بما ينتقيه من البلاد الشامية إلى المستهلكين فى مكة ، وبذلك يوفر على أهل القطرين مشاق الانتقال والنقل ، وكان يتقاضى لقاء جهده أرباحا معقولة . اما تجار الحبوب هنا ، فهم لايجلبون بضائع من بعيد بل هم يشترون الحبوب من البلدة ويخزنونها فى البلدة ثم يبيعونها فى نفس البلدة ولنفس

المنتجين ، فالمبالغ التى يكسبونها هى فوائد رؤوس أموالهم لا أجور مجهوداتهم وإنما أنشأت الحكومة بنك التسليف الزراعى لتمكن الزراع من الاستغناء عن هؤلاء التجار . وفى كثير من البلدان الأجنبية تتبع الحكومات إجراءات حازمة لحماية الجماهير من التجار ، فتحدد للحبوب ثمناً يبقى طول السنة ، فيشترى بنك الدولة أردب القمح بمائة وخمسين قرشاً مثلا ويبيعه بمائة وستين . وبذلك لا يتسع المجال لنهم التجار وجشعهم

وعندما تؤسسون هنا جمعية تعاونية فإنها تتولى الاحتفاظ لكم بالمقادير التى ترغبون الاحتفاظ بها من محصولاتكم وتقرضكم من المال ما يقرب من ثمنها ، حتى إذا ما احتجتم ثانية إلى تلك المحصولات حصلتم عليها ولم تتكلفوا أكثر من رد ما اقترضتموه .

كان هذا الحديث يضايق العمدة جد المضايقة فقد كان يحترف تجارة الحبوب فى البلدة وكان يحترفها على شر أشكالها ، بل انه كان فى الواقع يحترف الاقراض بالربا الفاحش فى مظهر التجارة ، فقد كان الفلاحون يلجأون اليه فى زمن الحصاد ليفك ضيقهم ، فيخبرهم ان الله قد أحل البيع وحرم الربا فهو لا يسعه ان يقرضهم ولكنه يقبل ان يشترى منهم قمحاً وكان يقدر للأردب منه ثمناً ينقص عن ثمنه فى السوق ريالا فيبيعونه قدر حاجتهم من المال ، ولا يمضى أسبوعان أو ثلاثة حتى يكون قد أنفذ الخفراء يحضرون له الأرادب المشتراة . وهل يجسر فلاح على مماطلة العمدة ؟

وهز العمدة رأسه كالثور وقال وقد أحس انه ظفر بغريمه : ومن أين يرتزق التجار إذن ؟

فأجاب المفتش : يرتزقون من اشتغالهم بالزراعة كسائر المزارعين ، أو بأية مهنة منتجة أخرى

وكان الباشا الى هنا مكتفيا بكلاب صيده المنطلقة فى أثر المفتش ، فلما آذن الحديث بالانتهاء رأى أن يلقى هو كلمتين يجعلان له فضل التنكيل بالفريسة فقال : وهل

يحسن التاجر الاشتغال بالزراعة ؟ أى كلام هذا ؟ لقد خلق الله كل فرد وله مهنة معينة ، والناس يرتزقون بعضهم من بعض

قال ذلك وهز رأسه بضع مرات من أعلى الى أسفل ، منزهوا برجاحة عقله وظرف أسلوبه

وأجاب المفتش وقد سره أن يلقى درسه فى هذه المرة على الباشا مباشرة : بل خلق الله كل فرد ولديه من المرونة ما يستطيع به التوفيق بين كفاياته واحتياجات المجموع ، فعندما استوردت مصر بعد الحرب العالمية الماضية عددا من سيارات التاكسى ، انصرف الجمهور عن عربات الخيل فاضطر معظم الحوذية الى مزاولة مهنة اخرى ، وعندما استوردت مصانع السجائر آلات لف اللفافات لم يعد بها من حاجه الى الآلاف من عمالها فاضطروا الى البحث عن اعمال اخرى

فضحك الباشا ضحكة خافتة مقتضبة مغتصبة وقال متهكما : نظريات جميلة جداً ياسيدنا الافندى

ورأى المفتش أن يرمى لهم بالطعم المعتاد فقال : ولا تنسوا ان الحكومة ستمد جمعيتكم التعاونية بقرض كبير لأجل طويل وبفائدة ضئيلة فأذا استطعتم ان تجمعوا من انفسكم بضع مئات من الجنيهات اقرضتكم الحكومة ضعفها فتستعينون بهذا القرض على شراء الأسمدة والآلات الزراعية للجمعية . ولكم ان تقترضوا من المبلغ المعطى للجمعية مبالغ تصلحون بها اراضيكم وتشترون منها ما تحتاج اليه حقولكم من المواشى

وهنا لمعت عينا الباشا شراهة وجشعا ومال الى المعلم حبيب هامسا : فكرة مدهشة والله . هذا هو المال يسعى الينا

وحوقل الفلاح مجاهد وهو رجل شديد التمسك بالقواعد الخلقية وقال : لخير لنا أن نبتعد عن هذه القروض فالاستدانة باب الخراب . فرد عليه المفتش : من كان فى غنى عن الاستدانة فليبتعد عنها بداهة ، ومع ذلك فهناك فرق بين الاستدانة بفائدة زهيدة لأسباب انتاجية كأصلاح الأرض والاستدانة بفائدة باهظة لأسباب

استهلاكية كشراء سيارة أو ملبس أو أثاث أو أنفاقها فى أفراح او ما تم …

كان مجاهد يعتقد انه ارضى الباشا بملاحظته هذه ، فأذا به لفرط دهشته يجد الباشا قد بدل مسلكه ازاء الموضوع فقد اعتدل فى مقعده وخلى عنه مظهر العظمة المتكلف وقال يعظ اهل بلدته : استمعوا لما يقوله حضرة البك المفتش . الحكومة تريد ان تمدينكم وترقيكم وانتم تصرون على البقاء على هذه الحالة المنحطة التى انتم عليها ! وما عسى ان تخسروا اذا ساهم كل منكم بجنيه او اثنين مقابل الفوائد الجمة التى ستحصلون عليها ؟ السوق بعد غد فمن لم تكن لديه نقود حاضرة فليبع فى السوق عجلة او نعجة ويحضر المبلغ . يجب ان يكون « قصر مظهر » اسبق البلاد الى ما فيه الرقى . احضروا المبالغ التى ستساهمون بها للمعلم حبيب بصفتـه امين صندوق الجمعية التعاونية وسكرتيرها ، وسيبادر بكتابة عقد تأسيسها . ثم نظر الباشا الى كاتبه وقال : يا معلم حبيب . قم بأعمال الجمعية بالمجان علاوة على عملك. هذا عمل خيرى فلا يصح ان تتقاضى عنه اجرا »

فأبدى الكاتب امتثاله للأمر

وحمد المفتش الله على هذه الخاتمة والافلات من هذا الجو الموبوء فقال : آمل أن يتم الموضوع سريعا بهمتكم ياسعادة الباشا ، وأرجو أن لا تؤاخذونى على تعجيلى فى الانصراف فأن على أن أحضر اليوم اجتماعا آخر فى عاصمة المديرية . وأترك لكم الآن نسخة من عقود التأسيس لتدوين البيانات المطلوبة فيها . وسأمر بعـد ثلاثة ايام أو اربعة لأخذها . السلام عليكم

فرد الباشا على تحيته بأحسن منها وخرج يشيعه ، وتبعهما الكاتب والعمدة

وفى اليوم التالى كان المعلم حبيب يطوف بمنازل الفلاحين وفى يده استمارات السلفيات يوقع منهم عليها بأختامهم. وانتهى شأنهم بها عند هذا الحد ، اما جملة هذه السلفيات وقدرها نحو الألفين من الجنيهات فقد انتهت الى المقاول الذى عهد إليه الباشا بتشييد سراى له ، كانت مثال الوجاهة فى عاصمة المديرية

٣

ثروة بلا سيادة

كان المعلم حبيب شخصا تستطيع ان تصفه بالقصر ذا جسم اقرب الى النحافة ، معتل البدن مكتئب المزاج دائما « أجرد » لا ينبت فى عارضيه سوى شعرات غبراء متناثرة ، فكان يبدو فى نظر الناس كالمساجين الذين تجتز لحاهم بآلة الحلاقة ، ولذلك فقد كان لا يحلق لحيته الا اذا دعا الى ذلك داع خاص . وله حدقتان صغيرتان عسليتان منطفئتان لا بريق لهما تعلوهما جبهة نحاسية ملتمعة كأنما دلكت بالزيت تنساب فيها غضون كالأخاديد فى الارض الجافة ، فتقسمها مناطق قد استقرت فوق احداها ذبابة مكسال ، تلعق العرق المتصبب من جبينه أثناء اجرائه العمليات الحسابية ومراجعتها وضبط الميزان للتأكد من صحتها . وهو لا يفكر فى اضاعة ثانية واحدة من وقته الثمين وإرباك فكره المرتبك بطرد هذه الذبابة فالذبابة لا تلبث أن تعود أو يحل غيرها . لقد كتب على جبينه أن لا يخلو من ذبابة . وكانت أذناه شديدتى الالتصاق برأسه كأنما كان أبوه يشدهما له فى صغره - على النحو المتبع فى تربية الحمير - ليجعل الابن منهما فيما بعد حمالتين للسجائر والاقلام

وكان من بعض مزاياه استطاعته أن يظهر بمظهر الأناقة دون أن يتكلف لذلك مالا كثيرا . وكان يلبس طربوشا قاتم الحمرة ويرتدى قفطانا صارخ الالوان وجوربا قليل التمزقات وحزاما «شاهيا» وجبها ومعطفا افرنجيا طويلا ويلقى حول عنقه لفاعاً من الصوف يقيه لذع البرد والبعوض ويخفى قذارة رقبة القفطان الوجيه الذى هو - بحكم وجود ثلاث فانلات صوفية تحته - نظيف فيما عدا رقبته ، اللهم الا مما يصيبه من بقع الأدوية والطعام الآتية من الخارج

وكان سيده يجلس على مقعده وقدماه على مقعد آخر ، ويطفق يملى عليه فحوى خطابات يريد ارسالها بلغة منمقة تناسب ما يدعيه من الوجاهة والعلم ، وهو يعتقد ان الكاتب لا بد يجيد ذلك لأنه حسن الخط ومتى تم للانسان حسن الخط فقد

ملك مقاليد صناعة الكتابة ، فحسن الخط وحسن الأسلوب شيء واحد ، وكان الكاتب عند حسن ظن سيده به فهو يدون الرسائل بسرعة البرق ، بلغة هى مزيج من العامية والعربية الفصحى والمصرية القديمة ولغة الدواوين التى ظلت مستعملة إلى أواخر الحكم التركى . وكانت عيناه تشعان خيلاء وعجبا حين يؤمر فيكتب الرسائل وهو واقف وقد ثنى طرف الورقة الأسفل بين اصابعه ، فأن طبقة الذين يحسنون الكتابة وهم وقوف دون أن يعتمدوا على متكأ ، قليل عديدها ، وهى إلى ذلك آخذة فى الانقراض

وكانت الغرفة الخارجية من منزله - التى هى بحكم اشتمالها على منضدة وبضعة مقاعد قد أصبحت مكتبا وغرفة للأكل وصالونا للاستقبال - مزينة برفوف مثبتة فى الجدار تبدو كأنها محمولة على قوائم من نسيج العنكبوت صفت عليها زجاجات الأدوية الطبية وقراطيس العقاقير البلدية التى يعالج بها أمراضه الحقيقية والوهمية وأخصها تعب المعدة المزمن الذى تولد من تعوده تناول مأكولات أنبتتها الأرض لغذاء الحيوانات فقاسمها اياها (كما قاسمها عقليتها) ليكون له مما يقتصده من ثمن طعامه مايدفعه أجراً للأطباء الذين سيعالجونه من أثر هذا الطعام . لقد كان يدفع للأطباء شطراً كبيراً من دخله وكان يدفعه دون أن يألم كما يألم غيره ممن لم يفردوا فى ميزانيتهم بابا للميكروبات والأطباء ، فاذا ما أمرهم طبيب باخراج السنتهم من أفواههم وريالاتهم من جيوبهم شعروا أنه يسرق هذه الريالات منهم بالأكراه

لقد كان الذى يزور منزل المعلم مرة حيث لايتركب الهواء من أوكسجين وادروجين ، بل من كربون وبخار سيرج ، يستعيد بعدها إلى ذهنه صورة داخلية هذا المنزل وأثاثه كلما اقترب فى جلسته من المعلم واشتم رائحة السيرج المتدفعة المتلاحقة من فمه ، فهى لاتنبعث بمثل هذه القوة من أى مكان فى البلدة غير منزل المعلم ومعدته

* * *

كان المعلم حبيب يعمل فى الدائرة منذ خمس سنوات . بدأ العمل فيها « كاتب

يومية يتنقل بين الحقول يحصى عدد العمال الزراعيين الذين يعملون بالأجر اليومى ، ويقدم بعددهم كشفا للمقدس جرجس ، وكان المقدس يعهد اليه أحيانا بمساعدته فى أعماله فكان يقوم بذلك راضيا مسروراً ، حتى إذا ما آنس فى نفسه القدرة على القيام بكافة أعمال الدائرة الكتابية وبما يتطلبه منصب كاتب الزراعة من دراية بأصول السرقتين ، سرقة الفلاحين لمصلحة الدائرة وسرقة الدائرة لمصلحة كاتب زراعتها ، قصد إلى الباشا فقال له : قد ورد فى الأمثال : «من أكل عيش النصرانى يضرب بسيفه» وقد جئت أخبر سعادتك بما اطلعت عليه أخيراً من خيانات المقدس جرجس ، وهو وان يكن من أبناء دينى إلا أنى أضع الأمانة والواجب فى المقام الأول من الأهمية قبل الزمالة فى العقيدة وقبل رابطة القرابة وقبل الصداقة وقبل سائر الروابط والصالات ، وأنا أرى من واجبى ان أخبر سعادتك بكل ما يحدث فى الدائرة ، وأكل العيش أحق ان يراعى

ونجح « حبيب » فى اثبات التهمة على المقدس فطرده الباشا وحرمه من متأخر حسابه وعين حبيبا بدلا منه فأصبح « المعلم حبيب » وضوعف راتبه فأصبح يتقاضى مائة وخمسين قرشا ، وكان سلفه قد بلغ إلى خمسة جنيهات

ودأب المعلم حبيب يعمل بجد وأمانة ، ودس عليه المقدس جرجس من يشى به ، فلما ظهر كذب الوشاية وبطلان التهمة ، عظمت ثقة الباشا به فزاد تقريبه اليه وأطلق له التصرف فى شئون الدائرة .

وعرف المعلم كيف يوطد هذه الثقة ويستزيد منها بجده وباظهاره القناعة براتبه وبضربه الرقم القياسى فى تحمل الاهانات . ثم بالأمانة المطلقة كان يتخلق بها بدافع الحذر من المراقبة التى تفرض على كل من يشغل منصبا جديدا وخشية الدسائس التى لا تستريح منها بلاد الريف . لقد كان شعاره : الأمانة فى المدة الأولى كنز لا يفنى لأنها تتيح للانسان أن يختلس فى المدة الثانية مطمئنا . لقد كان المعلم الأمين يعلم علم اليقين أنه أمين أمانة موقتة ، وكان يعرف المدة التى لا أمانة بعدها ، وهى مدة لم تضع عليه سدى ، فقد انتفع بها فى معرفة الذين يمكن أن يكونوا مصدر

خطر عليه وفى توثيق علاقاته ببعض مستخـدمى الدائرة من خفراء البيادر وأمناء المخازن و « الخولة » وغيرهم وفى اختيار التجار الذين يشترون محصولات الدائرة أو يبيعونها البذور والسماد وغيرها .

وزيد راتب الباشكاتب بمضى المدة الى ثلاثة جنيهـات وهو راتب لم يكن يتناسب والتصرف الواسع الممنوح له كما أنه لا يتناسب والثروة الكبيرة التى اقتناها والتى اشترى بمعظمها أسهما فى بعض المصارف والشركات دون أن يطلع أحـداً ، واشترى بالقليل منها بضعة أفدنة بثمن زهيد من مزارع واقع فى ضيق وزعم أنه دفع ثمنها من ثمن أرض باعتها امرأته فى مديرية بأقصى الصعيد .

على ان الباشا فى المدة الاخيرة كان لا ينكر على بعض جلسائه شكوكهم فى أمانة الباشكاتب ، ولـكنه لم يحرك ساكنا فالمسـألة مجرد شبهة إذ أنه لم يدهمه متلبسا بالسرقة ، ثم انه فى أعماق نفسه لم يكن يستفظع أن يسرق المرء بمهارته بعض ما تصل اليـه يده ،ثم إنه كان مرتاحا اليه لحسن أداء مهمته الاساسيـة الى جانب عمله الثانوى وهو كتابة الوارد والمنصرف ، وهذه المهمة الاساسية هى كتابة حسابات مزارعى الدائرة بطريقة لا تدعهم ينالون فى مقابل كدهم طوال العام الا القليل من الغلة ، وقد كان يفعل ذلك دون أن يتفاهم عليه مع الباشا صراحة ، وهـذا ما كان يرضى الباشا أتم الرضا إذ يتيح له سرقة المئات من فلاحيه دون أن يثقل ضميره ويلوث يديه بجريمة السرقة ، ودون أن يضيـع عليه شعور الأب الشفيق ومظهره ، إذ يواسى الفقراء ويرفه عنهم على قدر استطاعته

(٤)

مملـــكة

رجع الباشا الى مكتب الباشكاتب ليقضى فى شكاوى رعاياه . وقد كانت تلك اللحظات التى يجلس فيها للحكم تساوى عنده مال الدنيا . وكان لا يبالى أن يسوء المحصول سنة من السنين مادامت المصطبة قائمة ومادامت الحركة بين المزارعين مستمرة ، فهو يزرع ليحكم قبل أن يزرع ليحصد . وكان يتقن فن الأمارة على النمط القديم أكثر مما يتقن فن الزراعة على النمط الحديث ، فهو يكثر من التظاهر بالغضب كلما وجد فرصة لذلك ، فاذا أراد أن يتعشى مع نفر من زواره صاح فى عبيده فجأة : أين العشاء ؟ أليس فى الدار عشاء ؟ ماذا تنتظرون ؟ ومن البدهى أنهم لم يكونوا ينتظرون سوى الامر باحضار العشاء . وكانت صيحته هذه هى الأمر ، بيد أنها لم تكن أمراً فى صيغة أمر بل أمراً فى صيغة استفهام استنكارى

وكان يبعثر بعض القروش التى يستلبها من زراعه وفلاحيه ومستخدميه على المتسولين المحترفين وعابرى السبيل ، وهو حين يمنح المال من لا يستحقه يمنعه ولا شك عمن هو به أجدر . وكان يعرف أن هذه السياسة من شأنها إغراء الناس بالتسول والتشرد ، ولكنه لا يعنيه الا مظهر الامارة وشهرة « المحلق » تسرى على ألسنة هؤلاء المتسولين .

ورأى بالغرفة أحد عابرى السبيل ، وكان الباشا يعرفهم بمثل فراسة كاب الصيد ، فوجه اليه كلامه :

ـ ها . من أنت؟

فأجاب المتسول الالكاع

ـ أنا محمود

ـ محمود من ؟

ـ محمود مصطفى

ـ محمود مصطفى من ؟

ـ محمود مصطفى الجرجاوى

ـ أنت من جرجا ؟

ـ أجل ياسعادة الباشا

ـ من أى بلاد جرجا ؟

ـ من حوش مصطفى

ـ حوش مصطفى عند عزيز باشا ؟ من تعرف فى حوش مصطفى ؟

ـ أعرف كل الناس الطيبين . هناك عزيز باشا وأولاده لبيب وأمين ويحيى ، وهناك عبد العال بك وقد بسط الله له الرزق فى الزمن الأخير فاشترى ضيعة جديدة بخمسة آلاف جنيه أو بخمسين ألفا لا أدرى

ـ طيب . وماذا تريد يامحمود يامصطفى ياجرجاوى ؟

ـ أطال الله عمرك ياسعادة الباشا . كنت قد ذهبت الى مصر لزيارة أهل البيت ولرؤية ابنتى وهى متزوجة فى مصر . . .

ـ متزوجة ممن ؟

ـ من ابن عمها وهو « كمسارى » بشركة الترام . وقد نفد ما كان معى من المال، وأنا أسمع من زمن عن أريحية سعادتك وأن بيتكم هو مثوى العز والسخاء ، فقلت لأتوجهن اليه فيعطينى ماقسم الله به فأستعين به على الرجوع الى بلدتى

وبقى الباشا ينصت متلذذاً ثم اختلس نظرة إلى الفلاحين فوجدهم شاخصين اليه بأبصارهم ، فأخرج من جيبه قطعة ذات خمسة قروش دسها فى يد المتسول وأطبقها عليها بقوة كما يفعل البائع حين يرشو رجل الشرطة . وعرف المتسول المتمرن قيمة القطعة النقدية التى أعطيها دون أن ينظر اليها فدسها فى جيبه وهلل بالثناء والدعاء وخرج مهرولا كأنما يخشى أن يسترد الباشا منه ما أعطاه

ورأى الفلاحون حركة الباشا وهو يخفى أمام أعينهم قطعة النقـد فى يد عابر

السبيل حتى لا يعلم أحد مقدار ما أعطى، فحمدوا له استمساكه بعرى الشرع فالشرع يحض على أن يحسن المحسن دون أن تعلم يمينه ما أعطت شماله . لقد أعجب الفلاحون بهذا التستر فى الاحسان حتى لقد هموا أن يغفروا للباشا بعض ما جره عليهم من الشقاء والآلام ، وإذا بصوت الباشا يرن فجأة : يامعلم حبيب . دون عشرين قرشا فى باب الاحسان

فنظر الفلاحون بعضهم إلى بعض ، وسجل الكاتب المبلغ ، وأخذ الباشا يغمغم بصوت غير واضح

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم * بأخفاء شمس نورها متواصل

***

وقطع الباشا حبل الصمت سائلا الحاج عمر عما يريد ، فنهض الحاج عمر من قرفصائه وتقدم من الباشا خطوتين وبسط يديه فى حركة مسرحية وقال : لقد نجحت زراعتى ياباشا وأنتج فدان القطن عندى أربعة قناطير ، ومع ذلك فان سعادتك لم تأمر لى الا بأردبين من الأذرة

فهز الباشا كتفيه وزوى مابين حاجبيه قائلا : وماعساى أن أصنع لك ؟ أليس كل شيء بحساب ؟

فصاح الحاج عمر من أعماق قلبه : أى حساب ياباشا ؟ لقد فرضتم علينا لحرث فدان القطن دفع مائة وخمسين قرشا ، وقدرتم لحراسة الفدان عشرين قرشاً ، مع أنى ظللت أبيت فى الحقل كل ليلة لحراسة المحصول حتى تم جنيه فقال الباشا : أتريد أن تخسر الدائرة آلاف الجنيهات كى تكسب أنت بضعة ريالات ؟ أم تريد أن أضع نظاما خاصاً بك أنت وحدك ؟ هذا هو النظام السارى بين جميع الزراع ، وليس فى وسعى أن أميز بعضكم على بعض ، فالعدل يقضى بالمساواة بين الجميع . وما الذى أفادته الدائرة منكم جميعا ؟ هل نسيت أن الدودة فتكت هذا العام بنيف وألف فدان من أرضى ؟ وهل أضحت الزراعة تدر كسبا ؟ كلا . وانما نزرع ونستمر نزرع لكى يجد الفلاحين المساكين خبزهم

ـ خبزهم ؟ أليس هناك غير الخبز ؟ والأدام ؟ ألم يؤن لنا أن نذوقه ؟ لقد حرم أشرع علينا لحم الخنزير ولكن الفقر حرم علينا باقى أنواع اللحوم

ـ هل نسيت ياحاج عمر الدين الباقى عليك منذ سنة ١٩٣٠ ؟ ألست مدينا للدائرة بسبعة وثمانين جنيها ؟

ـ وهل سنة ١٩٣٠ هذه ستظل قائمة فى طريقنا ؟ الم يبق لنا حتى الأمل أن نكسو ذات يوم عيالنا أو نشترى بقرة نأتدم بلبنها ؟ علام الدين ؟ هل أفدنا من الزراعة شيئا ؟ أنشتغل بلا أجر ثم تحملوننا ديونا ؟

ـ قل للبنوك تتخلى لى عن الديون التى ترهقنى بطلبها ، أتخل أنا عن الدين الذى لى قبلك عن طيب خاطر

ـ ياباشا ! وهل هذا مثل ذاك ؟ الديون التى عليك قبضتها سعادتك نقداً وعداً ، أما الديون اتى علينا فهى من جراء تلف الزراعة لأسباب لاذنب لنا فيها ، فهل نحن الذين جئنا بالدودة ؟

ـ كلا ، لم تجيئوا بها ، ولكن كان من التيسر لكم جمعها وابادتها ، بيد ان الرجل منكم يرسل ابنه لمكافحة الدودة عند الآخرين ويترك حقله حتى يحرق

ـ وهل نحن الملزمون بالانفاق على مكافحة الدودة ؟ أليست الدائرة هى التى تنفق على ماتقتضيه الزراعة ومابقى يأخذ كل منا حقه فيه ؟

كان الحاج عمر قد أعد هذه الأجابات فى الليلة السالفة ، وقد ضمنها خلاصة ما سمعه فى مجالسه من الحجج فى أشهر عدة . أما الباشا فكان يلذ له أن يسمع مثل هذه الاجابات ليعرف كيف يفكر هؤلاء الأغنام وليزداد اطمئنانا الى أن هذه الأفكار التى ينفسون عن أنفسهم بالتصريح بها لا تقدم فى أمرهم ولاتؤخر ، وعدا ذلك فقد كانت هذه المحادثات تفسح له الفرص ليردد كعادته نغمة الشفقة والعمل على ما فيه الخير للناس مستعينا بالمنطق السفسطائى . وانتهى كعادته بالاحتكام الى خصمه ذاته ، مضطراً اياه بالبراهين المفحمة على أن يحكم على نفسه ، وأن ينقلب من موقف المطالب الى موقف المستجدى

وهكذا خفت صوت الحاج عمر وانطفأ البريق من عينيه وتراخت يداه وقال فى استكانة : واذا كنا نسخر أولادنا معنا بلا أجر فى خدمة الدائرة فمن أين نأكل إذن ؟ سعادتك ملم بالحالة

ورأى الباشا أن الوقت حان لألقاء العظمة للكلب الواقف أمامه ، فقال : على أى حال ياحاج عمر ، أنت مزارع مجتهد ، وأنا لاأفرط فيك يامعلم حبيب أعطه أردبا ثالثا . فصاح الحاج عمر وقد رفع يديه كمن أصابه مس من الجن : أبقاك الله لنا ياباشا وأدام عزك . وخرج وعلائم الرضا بادية على وجهه

ومع أن الباشا حين أعد الكشف الذى صرفت بمقتضاه مقادير الأذرة لفلاحيه كان قد أعد فى ذهنه كشفا ملحقا بالمقادير التى سيصرفها بعد أن يرفع هؤلاء الفلاحون تظلمهم اليه مبتهلين، فأنه شعر حين أمر بصرف الأردب الثالث شعور من يأتى عملا من أعمال البر ، شعور من ينشىء مدرسة أو يبنى مستشفى

ورأى فى هذا اليوم أن لا يقف فى خيراته عند هذا الحد، فانتخب الشيخ «على» من بين الجالسين وأشار اليه قائلا : وأنت أيضا ياشيخ على، ماذا تريد ؟

فأجابه : إنما أريد أن تخبرنى من أين آكل إذا كانت المحاسبة على هذا النحو ؟

ـ قل الحمد لله ياشيخ على ، وهل هناك من يماثلك فى حسن حالتك؟ ان لديك جاموستين وعندك دجاج تربيه ، وأنت على الجملة فى حالة تغبط عليها

ـ أتحاسبنى ياباشا على جاموستى امرأتى ؟ ولم أزرع أنا وأقلع وأبيت فى الحقل ؟ إذا كان وجود الجاموستين لا يجعل لى الحق فى الأجر فكان الأولى أن أبقى فى المنزل أنام وأستريح وآكل من لبنهما !

وهاتان الجاموستان ياشيخ على ، ألا تأكلان طول العام من الحقل مابين برسيم وورق أذرة وحشائش مما ينبت على حافات المصارف ؟ انى أعرفك ثرثارا . يامعلم حبيب . سد حلقه بنصف أردب آخر

ـ زادك الله خيراً ياباشا . لا عدمناك ياباشا

***

والقى الباشا نظرة إلى فلاحيه الجالسين كل فى انتظار دوره ، وصاح بهم : طيب . ارجعوا أنتم لأعمالكم فأنى على موعد مع مفتش الرى ، ومن كان له منكم مطلب فليأت بعد العشاء . فخرج الفلاحون من الغرفة كما تخرج الأغنام من الحظيرة ، الا اسماعيل الخولى فقد تقدم من الباشا قائلا : انني ياسعادة الباشا أشكو اليك حضرة الكاتب هذا ، وأقولها لك فى وجهه . كيف أسجن خمسة عشر يوما بسبب الأنبوبة التى ركبناها فى الترعة لرى الأرض ، فيريد حضرة الكاتب أن يقتطع أجرها من راتبى ؟ فهل كان سجنى لذنب يعود على نفعه أم لأمر يختص بكم ؟ ألست سعادتك الذى أمرتنى بتركيب الأنبوبة تحت ستار الليل فعوقبت من جراء ذلك بالحبس خمسة عشر يوما تحملتها دون أن أنبس ببنت شفة ، فيكون جزائى أن يقتطع أجرها من راتبى قائلا انك لم تشتغل هذه الايام ! أليس الحبس شغلا ؟

فنظر الباشا الى الكاتب نظرة الغاضب للحق وقال له : لم ذلك يامعلم حبيب ؟ ألم يكن حبسه من أجل الدائرة ؟ فقال الكاتب يتنصل من المسئولية كالمعتاد ويلقى الذنب على ناظر الزراعة تحريضا للخولى عليه : حقيقة الأمر ان حضرة الناظر غير مرتاح اليه ويقول أنه مهمل ، ويود أن يستبدل به أبا أحمد الذى كان يشتغل مكانه مدة غيابه ، ويقول الناظر عدا ذلك ان أبا أحمد يقبل أخذ مرتبه كل موسم (ستة ارادب من القمح وستة ارادب من الاذرة). واما اسماعيل فهو يصطنع التمدين ويصر على أن يقبض مرتبه نقداً كل شهر على مثال موظفى الحكومة

وأفلحت الدسيسة فقد اندفع الخولى يندد بالناظر : ألا أنه لا يحظى عندكم غير اللص يامعلم حبيب . وهل عرفت لابى أحمد ضيعة يعيش من ريعها ؟ فمن أين يأكل حتى ظهور المحصول الا من السرقة ؟ والخولى عندما يسرق ، ألا يضطر الى اغماض عينيه عن الخفير فيسرق ماشاء هو أيضا . ويراه آخرون فيضطر الى اغماض عينيه عنهم . وهل أنت تجهل سر اختياره لابى أحمد ؟ أليس أبو أحمد اخا « غزالة » ؟

وسر الباشا بما سمع من المطاعن ولكنه رأى أنه ليس من الحكمة أن يظهر هذا

المرور رسميا ، فصاح بالخولى متظاهرا بالغضب . إخرس ياولد . لا تنطق بالقبيح. ثم رأى أن يرضى خوليه بعد أن انتهره ، فقال للكاتب . اصرف له مرتبه كاملا ، وقل للناظر أن يكف عن ملاحقة هذا الرجل ، فقد خدمنا فلا نسيء اليه

وقال الكاتب فى خبث : هذا ما كنت أوده أنا ايضاً ، ولكنى لا احب ان اتدخل فى تصرفات الناظر حتى لايتوهم انى اتعرض لشئونه . حسنا يااسماعيل ، مر بى عصراً أصنع لك ما يرضيك

فدعا الخولى للباشا وانصرف

وقال الباشا :لقد صدع هؤلاء الفلاحون رأسى . وما عساهم كانوا يفعلون لوأن الزراعة ناجحة ؟ لعلهم كانوا يذبحوننا ! لقد أضحت الزراعة فى هذين اليومين خسارا فى خسار ، ولكنهم دائما يشتكون ودائما يتوجعون

فاندفع الكاتب متحمسا وقد سره أن يناقشه السيد فى سر المهنة : لقد توقح الناس وازداد جشعهم ، ولكن المرء يستطيع مع ذلك أن يرضيهم بكلمتين جوفاوين. وماعسى أن نصنع غير ذلك ؟ فهل نخلق فلاحين غير هؤلاء

فاتجه الباشا إلى مراده رأسا وقال وهو يبتسم . انى قاصد الآن الى المدينة لشراء بعض الحاجيات ، فاذهب أنت بعد انتهاء عملك الى منشأة حلمى وقل للشيخ يونس انه لم يكن يجمل به أن يستخدم «الأسطى» جودة عنده،فالأسطى جودة سائق بدائرتى وأنا الذى تعهدته بالتربية من صغره الى أن أصبح سائقا ممتازا ، فأنا أولى به ، واذا كان قد ترك العمل عندى موقتا فقد كنت اعتزم ارجاعه فى الحين المناسب . وليس يليق أن يكون مرتبه عندى مائة وعشرين قرشا فى الشهر فيأتى الشيخ يونس ويستخدمه بجنيهين . هذا اعتداء . ومن ذا يسوق جرارتى ؟ أنا لا أستطيع أن أحضر سائقاً من المدينة بأقل من ثلاثة جنيهات . ان فى عمل الشيخ يونس اخلالا بحقوق الجوار ، ولن أسكت على ذلك . ألم يكفه أنه رفع أجر الأولاد الذين يجمعون دودة القطن من قرش الى قرش ونصف قرش . انه يفعل ذلك لقلة أطيانه ، فهو لم يزرع سوى مائة وسبعين فدانا من القطن ولكنه يرغمنى

أنا على رفع الاجر فى ألف وخمسمائة فدان قطنا . ليس هذا بالأمر المقبول . قل له أن يفصل الأسطى جودة من عمله ، وقل للاسطى جودة لقد تصرفت تصرفاً معيبا. أتترك سيدك الذى رباك وتهجر بلدتك التى نشأت فيها الى البلدة المجاورة ؟ ولماذا؟ هل بلدتك عاجزة عن موافاتك بالقوت ؟ أرضه بكلمتين ، ولا بأس أن تصرف له قرشين من متأخر حسابه

فتمتم الكاتب مذكرا : انه يطالبنا بسبعة عشر جنيها

فقال الباشا متضايقا : سبعة عشر جنيها ؟ سبع عشرة داهية تنزل به . دعه يرجع ويتسلم العمل ، وقل له إنى أمرت بزيادة راتبه الى مائة وخمسين قرشا ، واصرف له جنيهين من أصل حسابه فقد اقترب ميعاد الحرث وليس لنا غنى عنه

فأجاب الكاتب مردداً قول سيده ، وكأنما يعرض عليه صورة مما سيقوله للسائق سأحضره رغم أنفه . هل يترك أحد سيده ويهجر بلدته التى نشأ فوق أرضها ويفر كالعبد الآبق ؟ ليس فى ذلك شىء من الوطنية

وارتاح الباشا الى هذه التجربة ولكنه وجد ألا يبارح المكان قبل أن يبدى شيئا من عدم الرضى فقال : وبعد ، فانى أراك يامعلم حبيب لاتبذل قصارى جهدك فى تحصيل المتأخر لنا على الفلاحين

فأجاب الكاتب وهو لا يخلو من رغبة فى المعاكسة : وما العمل وقد اشتدت الأزمة على صورة لم نر لها مثيلا طول حياتنا ، ها هو الحاج درويش قد ترك ابنه يتطوع فى الجندية لأنه لم يجد هنا عملا يقتات منه ، كذلك سحب خالد ولده من المدرسة الابتدائية لأنه لم يجد ما يدفعه مصاريف للدراسة ، وباعت ام الخير سوارها لتعيش بثمنه حتى يمن الله بالفرج

فتأفف الباشا وقال : ما هذا الكلام الذى يشبه موضوعات الانشاء ؟ لقد سمع هؤلاء الفلاحون أن الجرائد تزعم أن الأزمة سائدة فتباكوا وبالغوا فى التظاهر بالفاقة والعوز وقالوا إنهم مأزومون لا مال عندهم . انهم قوم لا ذمة لهم فاذالم يظلموا ظلموا ، فهم لايكونون أبداً الا ظالمين أو مظلومين ، واذا ما لان المرء لهم لم

يقولوا إنه رجل طيب بل وصفوه بالسذاجة والغفلة وازداد طمعهم فيه . انى أريد أن أدفع للبنك مبلغا صغيراً لأكتفي شره بضعه أشهر . وعـدا ذلك فانى أرغب فى استبدال سيارتى بخير منها فقد أضحى منظرها غير لائق . ثم نهض الباشا وقال: اصغ إلى . ها أنا ذاهب الآن . وأرى خير الطرق لتحصيل مايتيسر تحصيله مما لى على هؤلاء الفلاحين أن أنزل لهم عن ربع هذه الديون ، على أن يوقع كل منهم صكا بباقى المبلغ

وأدرك الكاتب ماوراء هذا من تدبير يريد به صاحب الارض أن يقبض على أعناق فلاحيه ، وقال: والله انه لعمل مبرور تشكر عليه سعادتك

فخرج الباشا يختال خيلاء بذكائه النادر وأريحيته البالغة

٥

سيادة بلا ثروة

كان ناظر الزراعة كارها لكاتب الزراعة ومكروها منه ، فكل منهما يعتقد أنه يستطيع القيام بعمل الآخر خيراً منه ، وكل منهما يجتهد فى التدخل فى عمل الآخر واستلاب بعض سلطته واختصاصه ، وكل منهما يحاول أن يحط من شأن زميله وأن يظهر أمام سيده بمظهر الملاك الحارس للدائرة وعمادها الذى لاتقوم بغيره ، وكل منهما يعمل على عرقلة عمل الآخر جهد مايستطيع ، ثم إن كلا منهما يضيق على صاحبه ويفوت عليه غرضه الأساسى فلا يمكنه من السرقة إلا إذا اشتركا معا ، وهذا الاشتراك فى معظم الأحيان غير مرغوب فيه لأنه يجعل كل منهما مهدداً من الآخر .

كان عطية افندى ناظر الزراعة صورة تختلف تمام الاختلاف وصورة المعلم حبيب ، فقد كان المعلم يبالغ فى اظهار المسكنة ويعيش عيشة وضيعة فى بيته القذر، ويقتر على نفسه تقتيرا كان له الأثر الأسوأ على صحته وان يكن له الأثر الأحسن على ثروته . وعلى الضد ، كان حضرة الناظر يبالغ فى اصطناع مظاهر الجبروت وينفق

مرتبه كله فى سعة المعيشة ومعاقرة الخمر ومصاحبة النساء ، ومع ذلك استطاع بفضل بضع سرقات كبيرة جريئة وفقه فيها الشيطان ، أن يشترى خمسة أفدنة

كان عطية افندى ضخم الجثة ذا بشرة بيضاء شوهاء البياض تبدو كأنما البرص يكسوها ، ولم يكن يدرى من أين انحدر اليه هذا البياض فأن أحدا من والديه لم يكن كذلك ، الا أنه كان بادى الاقتناع بما ذكرته أمه تعليلا لهذه الظاهرة فقد زعمت أنها « توحمت » فيه على جواد أبيض كان يركبه الباشا أيام شبابه وفتوته ، ولم يكن يعنيه من هذا البياض الا امتيازه به دون عامة فلاحى البلدة وأن اللون الأبيض كان معتبرا إلى زمن قريب لون الجنس السيد فى الرجال ولون ملكات الجمال فى النساء ، فاذا ماورثت الأم ابنها بياض اللون فقد ورثته ثروة حقيقية

على أن بشرته لم تكن وحدها البيضاء فيه ، فقد وخط الشيب أيضا رأسه فى سن مبكرة . وهو اليوم قد جاوز الاربعين من عمره ولكنه كان يعمل على الظهور بمظهر من لا يزال فى شرخ الشباب ، فكان فى بادىء الأمر يحلق بالموسى سالفيه ليزيل مع شعرهما ماوخطه من بياض ، وكان ذلك يجعله يبدو مشوها مضحكا ولكن التشويه والاضحاك أهون من الهرم والاعتراف بالهرم ، غير أن شعرات بيض بزغت فى أجزاء أخرى من رأسه ورأى هو أنها لا تناسب سنه فكان عليه أن يخفى هذا البياض بالاصباغ حتى يبدو فى سنه المختارة . وقد كان بعض الذين بلغوا سن الأربعين من أبناء بلدته يعرفون أنهم ولدوا بعد ميلاده ، ولكنهم كانوا مع ذلك ملزمين بأن يصدقوا ماقرره لهم وهو أنه فى الثانية والثلاثين من عمره

ولم يكن له زى معروف يقتصر عليه ، فقد كان فى أوقات الراحة يرتدى جلبابا قاهريا ذا بنيقة مقفلة ، وكثيرا مايرتدى بالليل جلبابا مفتوح الصدر وطاقية ولفاعا مثل عامة أهل البلدة فلا يلفت شكله الأنظار وهو يتسلل فى الطرقات الى بيوت عشيقاته ، أما اذا قصد الى المدينة لأمر خاص به اوبالدائرة فلباسه « البذلة » الافرنجية المعتادة ، وهو يرتدى نفس البذلة عند الركوب للمرور فى الحقول مع فارق واحد هو حذف رباط الرقبة ، ويلبس فى بعض الأحيان « بنطلونا » قصيرا ويلف على

ساقيه قماطا ويضع على رسه برنيطة على شكل الخوذة خاصة بالمناطق الاستوائية ذات لون داكن يجعله لا يبين من بعيد فما يدرى الفلاحون الأجراء الا وهو بينهم كأنما انشقت عنه الأرض كما تنشق عن العفاريت والجان فى القصص الخرافيه التى هى كل نصيبهم من الثقافة

وكان هذا الميل الى المباغتة والأدهاش يتملكه، فاذا عرضت أمامه مسألة بسيطة بالغ فى تعقيدها ليبدو فى نظر الفلاحين مملوءا حكمة ومكرا ، واذا التقطت أذناه خبرا تافها عن احد الفلاحين ولو كان ذلك فى أمر لا يعنيه ناداه فقال له : إنك كنت فى وقت كذا فى مكان كذا ، وقد قال فلان كذا ، وذلك دون أن يقول له إنى علمت ذلك من فلان ، حتى يدخل فى روع الفلاح المسكين أنه يعلم السر وما يخفى

كان ناظر الزراعة هذا ذكيا كالكثير ممن هم دعائم الشر فى مصر ، وكانت خبرته بطباع الناس وغرائزهم ومواطن الضعف فى نفوسهم تفوق كثيرا معرفته بأصول الزراعة ، ولم يكن يعنى بالانتاج قدر عنايته بالتحكم فى المستأجرين والفلاحين الأجيرين ، فضلا عن المزارعين المجاورين الذين يضطرون الى الاتصال به بين آن وآخر بحكم اشتراكهم والدائرة فى الرى من مسقى واحد ، والذين لم يكن يتوانى عن معاكستهم فى الرى جهد استطاعته حتى يلحقوا به فى الأخفاق مادام غير لاحق بهم فى النجاح . لقد كان يكره الخير لأى انسان ولا يتردد فى منعه عمن يستطيع منعه عنه فيؤخر حرث الأرض للمستأجرين ولا يقدم لهم البزور والأدوات الزراعية فى حينها ، وكان صدره يتآكل حسدا لكل من اصاب مافيه صلاح أمره ، فأذا اقتنى فلاح جاموسة أو جاموستين أغراه باستئجار حقل يعرف سوء تربته وظل يصليه حربا خفية حتى تخفق زراعته فيبادر الى توقيع الحجز عليه

كان هذا الناظر نقمة على الجميع خلا الذين أذعنوا له من بادىء الأمر ، وكان لا يضن ببعض وظائف الدائرة وأموالها على من ارتضوا أن يتخذ منهم أعوانا له فى ارضاء شهوته الجنسية ، فقد كان يفترض أن هذه الدائرة الواسعة التى يديرها إنما خلقت ليستمتع هو بنساء فلاحيها

وقد بدأ مغامراته الغرامية بالنساء أشباه العموميات ، فقضى فترة من الوقت مع فاطمة بنت الأسكاف وهى على جانب عظيم من الجمال ، وكانت تجيد استغلال جمالها لأشباع حواسها مرة ولاكتساب المال مرات ، وكان لها من قوة الأرادة ما يجعل زوجها صفرا على يسارها ، وكانت حين تتحدث عنه الى عشاقها تذكر اسمه بمنتهى الاستخفاف والزراية ، وحين تلتقى بعشاقها وقوادها وجيرانها يبدو من حركاتها واشاراتها مايفصح عن حقيقة حالها ، وهى حال ليس من شأن انسان بعيد عن المدنية مثل زوجها أن يرضى بها . ولقد وجد الرجل أنه ما من وسيلة يستطيع بها التوفيق بين كرامته وخنوعه لامرأته الا التظاهر بمنتهى السذاجة ، وطال عهده بهذا التظاهر حتى أضحت البلاهة صفة حقيقية فيه

كانت هذه المرأة تتقن بعض فنون العشق ولكن عموميتها وتسليمها لكل من هب ودب جعل عطية افندى آخر الأمر ينشد غيرها ، فقصد الى نجية وهى امرأة متزنة تبدو أمام عامة الناس فى صورة الزوجة العفيفة وأمام عشاقها فى صورة من تزل للمرة الأولى فيكسبها ذلك بعض الفتنة ، كانت تبدى الحب لزوجها وتأخذه باللين وتغضب اذا خطر لأحد المعجبين بها ان يحدثها عنه بلهجة الاستخفاف ، وكانت تحرص الا تصبح سمعتها مضغة فى الأفواه ، ولذا كانت تنتخب عشاقها بكل عناية وتدقيق ثم لاتقضى حاجتهم الا اذا أقسموا لها على كتمان ما يكون بينهم

وبدأ عطية افندى يتردد عليها ليلا ليشرب الشاى عندها بحضرة زوجها ، فيحضر معه الشاى والسكر والتبغ ، وكان الزوج يسر بذلك لفقره ولما فى الانتفاع بالأشياء بلا ثمن من لذة لاتشوبها شائبة . ثم أخذ عطية افندى يرسله فى منتصف الليل الى الحانة التى بظاهر البلدة ليبتاع منها قنينة خمر يشربونها معا ، وكان الخمار يستبقيه عنده فترة من الوقت يسقيه خلالها قدحا لايتقاضى عليه ثمنا ويسأله فى أثناء ذلك عن الذى سيشرب معه هذه القنينة فيجيبه عن سؤاله بكل براءة ، ثم يعود الى بيته بعد ساعة فيطرق الباب المغلق طرقا خفيفا حتى لا يقلق الجيران المساكين المستسلمين للنوم بعد نهار طويل من الكدو العناء ، ثم ينتظر مطمئنا حتى تجد

امرأته المفتاح الضائع وتفتح له ، فيحتسون ثلاثتهم الخمر معا ويقضون ساعتهم كأحسن مايكون الاصدقاء فى معاقرة ومنادمة وانشراح

وطالت الحال على هذا المنوال ، ثم بدأ عطية أفندى يشعر أن هـذا ليس كل المقصود فأنه إنما يحصل على مايحصل عليه بفضل المال وذلك ما يستطيع أن يفعله كل من معه مال ، وهو يمتاز بأنه ذو سلطة فى البلدة فهو يريد أن يكون لسلطته شأن فى الموضوع ، يريد أن يفعل مايفعل لا على أنه خلسة فى الخفاء بل على أنه حق شرعى يباشره بمقتضى ماله من السلطة ، يريد أن يأخذ اعترافا صريحا من الزوج المتغاضى أنه يعلم أن زوجته متاع لسيده وأن للسادة حقوقا على زوجات المسودين ، يريد أن يلهو مع المرأة لا لمجرد الاستمتاع بجسدها أو بحبها بل للاستمتاع بشعور التفوق والقوة والسيادة وبأهانة الزوج واذلاله ، فأخذ يذكر فى حديثه للزوج نكات فيها تورية ولكن الزوج كان يتظاهر بفهمها على معناها الظاهر ، مما ضايق صاحب النكات وفوت عليه غرضه

وجاء ذات مساء وقد أعد القنبلة التى اعتزم القاءها فشرب الشاى كالمألوف ثم طلب الى الزوج أن يذهب لشراء قنينة الخمر المعتادة وأعطاه ريالا ليدفع منه ثمنها وقال له يمكنك أن تحتفظ لنفسك بالباقى ، وبينما الزوج يعبر عن شكره ، اذا بعطية أفندى يفاجئه بقوله : لا تحضر قبل انقضاء ساعة فأنى معتزم مضاجعة زوجتك

علا الشحوب وجه المرأة وسرى البرد فى عروقها ويبست أصابعها من فرط الذهول والحنق والخيبة . لقد ظلت عدة سنوات تحافظ على سمعتها كامرأة شريفة وتحافظ على شعور زوجها فاذا أرادته على أن يبرح الدار طلبت ذلك فى شكل النصيحة له بالتريض أو التنبيه الى وجوب زيارة صديق أو قضاء شأن من الشئون ، وكان هو يبادر الى النزول على ارادتها.

وبالجملة كانت حياتهما على أتم تناغم ووفاق . فلما ألقى عطية أفندى تصريحه شعر الزوج المهان بانهيار النظام الذى اعتاده وشب عليـه فنظر إلى زوجته مستلهما ثم تخلص من ارتباكه فدس الريال فى جيبه ورفع رأسه عاليا وصرخ فيه : اخرس ،

قطع لسانك . وشرع نبوته في الهواء ، فبوغت عطية أفندي بهذا الشمم والأباء وقفز الى خارج الدار يعدو والرجل وراءه حتى ألقى بنفسه في الترعة . وعاد الرجل الى البلدة يتحدث في فخار عن عفة امرأته وطهارة ذيلها والجمهور يثنى على فضيلتها وشجاعته ، وبين المستمعين نفر من عشاق الزوجة يؤكدون في منتهى الجد أن ليس في نساء البلدة امرأة أعف منها وأطهر .

وقد أفاد ناظر الزراعة من هذه الحادثة درساً هاما ، إذ علم أن الخلق ينزلون عن كل شيء إلا الرياء ، وأن الناس يضحون في سبيل مصالحهم بالجوهر ولكنهم يضحون بمصالحهم وبالجوهر في سبيل المظهر

وعلا صيت عطية افندي بعد ذلك في البلدة كزير نساء ، فكانت هذه الشهرة نفسها تفتن الكثيرات وتجذبهن اليه فأصبح مطلوبا بعد أن كان طالبا

كان عطية يشعر في صميم نفسه شعور الاستخفاف بالفضيلة وبالمساكين المتعلقين بأهدابها ، وكان يحلو له في بعض الأحيان أن يدع ذلك يبدو في تصرفاته بمقدار مايطيق الجمهور الغبي . كان قد تلقى في صغره بعض دروس الديانة ، وكان المدرس يكثر من الأشارة الى قصر الحياة الدنيا وان الموت أقرب الى ابن آدم من حبل الوريد ، حتى انطبع هذا الفهم في نفسه أعمق انطباع ولكنه لم يكن لينتج في مثل طبيعته وتربيته الا نتيجة عكسية إذ اندفع وراء الاستمتاع بنهم وشراهة ، لايدع فرصة الا اغتنمها لأشباع شهواته واطفاء أوار آلامه الجنسية قبل ان يطفيء الموت حياته ، فكان إذا ما مر بامرأة جميلة أصابته مثل رعدة الجواد يقترب من الفرس . وإذا كان « من نظر الى امرأة نظرة اشتهاء فقد زنى بها » فلا شك أن نظرات عطية افندي تعتبر فسقا بالأكراه

كان عطية افندي مكروها من معظم رجال البلدة ، ولكن هذه الكراهية لم تكن تنال منه إذ كان كل من يلتقى به منهم يحييه بكل ود واحترام ، بل لعل هذه الكراهية كانت أحرى ان تبعث فيه سرورا داخليا لما بها من شهادة بأن مركزه يرغم الناس على أن يظهروا له من التجلة والاكرام نفس مايظهرونه لأصحاب الفضائل العليا التي لو أراد أن يتحلى بها حقا لكلفته ثمنا كبيرا

٦

فقر وعبودية

ضرب الله على أهالى « قصر مظهر » ذلك الباشا الذميم ، وضرب الباشا الذميم عليهم الذلة والمسكنة ، والفقر والعبودية ، والجهالة والايمان بالخرافات ، والانحطاط والرجعية ، والمأذون والعمدة .

كان أولئك الناس كالكهول المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة يعرفون أنهم سيموتون دون أن يتنسموا نسيم الحرية ولكن هذه المعرفة لا تدفعهم إلى محاولة ما ، فغريزة حفظ الحياة تصدهم عن الانتحار وحب الاخلاد الى الراحة والركون إلى الاستكانة يثبطان هممهم دون التمرد والمجازفة، وهكذا يظلون يحيون حياتهم التاعسة فى مناجم المهين وليس أمامهم من غرض إلا وفاء مدة الحكم الأبدى الذى حكم عليهم به .

كان هؤلاء القوم يعيشون فى اكتئاب ووجوم ، يعملون ويكدون دون أن يلوح أمامهم أمل يستحق أن يكد المرء من أجله وكان كل ما يحيط بهم ويكتنف حياتهم لا يسمح بغير هذا الوجوم الشديد والاكتئاب العميق ، تلك هى أكباسهم (بيوتهم الطينية) القاتمة من الخارج ، المظلمة من الداخل ، التى لا ينكر اقادم عليها حين يزكمه هواؤها الرطب ، ويخنقه جوها القابض إلا فى حال ما فيها من المواشى والدجاج : كيف تستطيع هذه الأرواح الحيوانية المسكينة احتمال سوء هذه الباءة . لقد شملت نكبة البلدة « بباشتها » هذه الحيوانات أيضا ، فقضى عليها أن تأوى الى بيوت أو أوجرة كهذه

ولكن تلك البيوت القبرية لم تكن هى كل أسباب البؤس ومسبباته ، فهنالك الأسمال الزرقاء المزقة التى يبدو فيها المرء كأنما مرت عليه عجلات الترام فزقته وأثوابه إربا إربا ، تلك الأسمال التى هى خير بيان لعدد السنوات التى يستطيع كل نوع من أنواع الأقمشة المختلفة احتمال المقاومة فيها ، والتى تحاول جازعة أن

تخفى وراءها اعضاء هزيلة كأنها جمعت من مشرحة كلية الطب وركبت بقصد تجريع أصحابها قدراً آخر من العذاب .

وهنالك مكيفاتهم القابضة لشهوة الأكل التى تجرى فى عروقهم سما زعافا والتى تجعل مجالسهم أشبه شيء بحفلات الانتحار اليابانية ومأكولاتهم التى تحوى من الجراثيم والحشرات مقدار ما كان يجب أن تحوى من الفيتامينات ، وأحاديثهم التافهة التى لا يريدون بها أن يقولوا شيئاً ، ونكاتهم الجوفاء التى يحاولونها فتحدث من خيبة الأمل أكثر مما تحدث من الضحك الكاذب ، وأغانيهم ذات الألفاظ البذيئة والنغمات الموجعة الحزينة

وهنالك شعورهم الدائم بالضعة والهوان ، فهم محرومون من السيادة حتى على أنفسهم ، لا حق لهم فى التعبير عن مشاعرهم ولا فى الامتناع عن تكلف مشاعر لا يشعرون بها ، فهم مضطرون أن يستمعوا الى أحاديث السادة وأن يعجبوا ببراعتها وإن لم يكن فيها أثر للبراعة ، نعم ، فى استطاعتهم أن يتميزوا سرا من الغيظ من سماجة السادة، ولكن على شريطة أن يشعر السادة بمقدار ما أحدثوه فى نفوسهم من الانشراح بلطفهم وخفة روحهم

وعلى الفلاحين بعد ذلك أن يبتهجوا لاقامتهم فى كنف سعادة الباشا فى حين يعيش غيرهم فى بلدة لا تحوى غير بك أو أفندى ، ولن يقلل من ابتهاجهم أنهم لا ينتفعون بباشويته البتة، شأنهم كشأن ساكن السرادب يبهجه أن يكون مقيما فى سرداب ناطحة سحاب لا سرداب منزل ذى طبقتين

ولقد سمع فلاح كهل أن صحيفة من الصحف كتبت أن الفلاحين هم عماد ثروة البلاد وأصحاب الفضل على الأغنياء فمن واجب الحكومة أن تعنى بهم ، فأبرقت أساريره لحظة ثم سرعان ما خبت ، فلما ذهب الى البيت ربت على كتف ابنه الرضيع، وقال له : لعلهم يوفون بذلك فى قابل أيامك

٧

الشعور بالادنوية

كان النسيم يهب عليلا فيشعر النفوس المتألمة بما كان يمكن أن تكون عليه الحياة من الصفو لولا ارادة الذين لا يرون من حق العبيد أن يتنعموا ، وكانت الشمس الذهبية تسطع على حقول الحنطة فتجعل منها لوحة فنية بديعة لولا أنها كباقى اللوحات التى تضمها جدران قصور مغلقة لم يكتب التمتع بها لعابرى السبيل ، وكان طين الأرض فى تفتته وتخلخله يبشر بما يحويه من قوة النماء ومادته للنبات ، ولكن ذلك لم يكن يسر أحداً ، فغلة الأرض محرمة على منبتيها لا ينتفع بها الا نفر قليل : صاحب الأرض والأسرة التى تعيش عالة عليه وعالة على من يعيش هو عالة عليهم .

وكأن صالح ومجاهد لم يكتمل تبرمهما بالحياة التى يحييانها فجاء عطية افندى يزيدهما تبرماً بها بتقريعهما على التقصير فى العمل وبتعيين واجبات أخرى يتحتم عليهما تأديتها ، ولكن مجاهد ـ ذلك الرجل القوى الخلق المتين العقيدة الذى يمثل صلابة الفلاح المصرى وذوده عن كرامته حين يكون فى الامكان أن يذود عنها ـ لم يجد أن يدع هذه الفرصة تمر دون أن يعبر عن شعوره لهذا الجلاد الذى يعذب الألوف من عشيرته وأهل بلدته طمعا فى أن يكون فى ذلك احتمال رضى لسيده

قال مجاهد : أقول لك الحق . لقد أصبحت هذه العيشة تورث الكفر . يشتغل المرء كالمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ويهد قواه هدا وهو لا يدرى أيكون له من عمله فى آخر العام نصيباً من الغلة التى انتجها بكده ، فالدائرة هى التى تغنم كل شىء ، أما نحن فلا نفيد شيئا !

ووجد الناظر الساخر فرصة سانحة يشبع فيها رغبته فى الاستخفاف بالبشرية وآلامها ، فنظر الى مجاهد مصعرا خده وقال له : وماذا فى ذلك ؟ جوعوا تصحوا . وما الذى يحدث اذا لم تجد آخر العام نصيبا من الغلة ؟ أتقع السماء على الأرض ، أم

تستعر لظى الحرب ؟

وفكر مجاهد فيما يقوله الناظر فوجده لم يعد الصواب،فهل تقع السماءعلى الأرض أم تستعر لظى الحرب ؟ أجل ، كان الواجب أن تقع السماء على الأرض ، والا فمتى تقع السماء على الأرض ؟ ولماذا ولمن خلقت السماء والأرض ؟ ولم لا تستعر لظى الحرب مادام السلم لا يضمن للناس أن يأكلوا وأن يلبسوا وأن يعيشوا فى سلام

واستمر ناظر الزراعة فى لهجته المتشفية المتهكمة : تهد قواك ؟ وما الذى انتجته حضرتك بعد هد قواك ؟ ألم يغل فدانك ثلاثة قناطير ؟ ثم تجد بعد ذلك صفاقة تتوقح بها ؟

— وهل أنا مسئول عن انتاج الأرض ؟ هل أنا الذى أشرت عليكم بتسميد الأرض بتلك الطفلة الحامية التى جلبتموها من الجبل ؟ وهل انا المسئول عن تأخير الحرث ؟ ألم تأمر بتأخير حرث حقلنا رغم أن الجرارة كانت فى جواره وأرسلتها الى الجهة الشرقية لحرث حقول نصر ودسوقى وأبى أحمد ؟

— اخرس.ما شأن أبى أحمد هنا ؟ وأين أنت من أبى أحمد؟ مالك ولغيرك؟ : أخرتم حرث الأرض ! أخرتم توزيع البزور ! هكذا هم الفلاحون دائماً ، يفسدون الأعمال ويحاولون التنصل من المسئولية بإلقائها على عاتق سواهم . اذا كنا نحن أتلفنا زراعتك يا حضرة مجاهد افندى فأمامك القضاء فالجأ اليه لعله يحكم لك بتعويض ما لحقك من الخسائر . واذا كنت غير مرتاح عندنا ففارقنا يا أخى . هل نحن ألزمناك بالبقاء بيننا ؟ هل نحن أمسكناك من يديك ؟

—أفارقكم الى أين ؟ انكم جميعا متشابهون ، وماتفعله هذه الدائرة هنا تفعله الدائرة الأخرى هناك . فى وسعى أن أبدل سيداً بآخر ولكنى أظل عبداً فى جميع الأحوال

كان مجاهد يدرك أنه يعيش تحت وطأة قوانين حديدية لا فكاك منها . لم يكن أعمى عن رؤية الحقيقة المؤلمة ولكن رؤيتها وعرفانه بقوتها لم يميلا به الى الاذعان والتسليم شأن النفوس الضعيفة بل جعلاه أميل الى العناد والتنازل مقدما عن كل

مايمكن أن تقدمه له الدنيا من التمتع ، وان لم يكن لأمثاله من متعة غير متعة الاستكانة والخنوع . لقد امتلأ قلبه بالحقد ، ولكنه كان دائم الشعور بأنه لا يزال بحاجة الى التزود بقدر آخر منه . كان يريد أن يحقد حتى لا تبقى فى قلبه خلية واحدة لم تتشبع بالحقد ولم تتحول الى غدة لأفراز الحقد . لذلك كان يتقصى مآسى الفلاحين وأخبار بؤسهم وتحطم نفوسهم ، ثم يتقصى فضائح الباشا وابنه وناظر زراعته وأخبار لهوهم ومجونهم . كان يشعر أنه سيعمل ذات يوم شيئا لتغيير الحالة ، وكان يخشى أن يعتوره الضعف يوما من الأيام ، فكان يتحكك بهؤلاء الذين يريد أن يتخذ منهم مهبطاً لنقمته ، وكان يتصيد فرصة يتعرض فيها لأهاناتهم حتى تذكو النار اللازمة لصهر روحه .

وكان عطية أفندى يكلمه بصلفه المعتاد ولكنه كان يقابل هذا الصلف والغطرسة بوقفة الواثق من نفسه وبنظرة التحدى

ورأى صالح حرج الموقف فقال يلقى مسئولية اخفاق الزراعة على طرف ثالث : الحقيقة أنه من يوم أن نفدت كومة السماد الكفرى لم تعد الأرض تغل غلتها السابقة . لقد سمدت العشرة القراريط التى أملكها ، بنصف شوال من المخصب الكيميائى فأنتجت ثلاثة قناطير . السماد هو أهم شىء فى الزراعة ، والأرض كالجاموسة ان لم تعطها غذاءها لم تعطك غذاءك

وظن صالح أنه أبدع فى هذا المثل الذى سمعه مرة من مفتش زراعة المديرية ولكن ناظر الزراعة رأى أن يجعل من صالح هدفا لتظاهره بالغطرسة والجبروت فهو يعرف صالح ألين عريكة من مجاهد ولا يخشى أن يؤدى الاحتكاك به الى صدام . قال : هراء . لا أحب ان تتفوه بهذا الكلام مرة ثانية ، لا لى ولا لغيرى . أتود أن تقول انك تفهم فى الزراعة أكثر منى ؟

فأجاب صالح . بداهة . ثم استدرك سريعا : بداهة لا . أستغفر الله

فقال ناظر الزراعة : وهل يستطيع المرء أن يتعهد ألفاً وخمسمائة فدان قطناً

بمثل العناية التى يتعهد بها فدانا أو نصف فدان ؟ لو ان كلا منكم كان يخدم حقله فى أرض الدائرة بعناية واخلاص كما يخدم حقله الخاص لأنتجت الأرض ثلاثة امثال ماتنتج . ولهذا فأنتم لاتستحقون حبة أذرة واحدة . صه ، حذار أن يتحرك لسانك بهذا الكلام مرة أخرى . تجنب الكلام الفارغ وأبعد عن قلة الحياء . ثم امتطى حماره وسار به يتبعه خفير موكل بحراسته

ونظر صالح برهة فى الاتجاه الذى سار فيه الناظر ، ثم قال يخفف عما فى صدره : يسألنى اذا كنت أفهم فى الزراعة أكثر منه ! وما الذى أدراه هو بشئون الزراعة. إنه لا يتقن غير إطالة اللسان وغير الملق والدهان

أليس هو السبب فى اشتداد فتك الدودة بالقطن ؟ ألم يجمع كل أطفال التنقيـة ويركزهم فى الحقل الذى اشتد فتك الدودة به ولم يبق ثمة أمل فى انقاذه وذلك ليؤخر ظهور شدة الاصابة وانكشافها للعيان بضعة أيام ؟ وكان فى سبيل ذلك يترك الحقل الذى ليس به سوى لطع حتى تفقس بويضات تلك اللطع ويكبر الدود ويأخذ فى التهام النبات ويبدو اللون الأحمر جليا فى الحقل ، وإذ ذاك يقبل عليه بأطفال التنقية كافة ولكن بعد فوات الأوان . وقد أشار عليه معاون الزراعة بتقليـع القطن فى الحقل الأول وزرعه أذرة ، لينفرغ أطفال التنقية لانقاذ الحقـول الأخرى التى لم تستفحل الاصابة فيها بعد ، وقال له إن تضحية ثمانين فدانا فى سبيل انقاذ باقى الألف والخمسائة فدان أمر هين ، فهل أصاخ للنصيحة ؟ كلا ، فهو لم يكن يرقب الله فى عمله ولم يكن يحرك نشاطه الكاذب غير الملق والمراءاة ، وقد ضحى فى سبيل ملقه المرذول بأكثر من ألف فدان ، فلم يسلم من البلاء غير الحقول التى فى غرب الترعـة إذ لطف الله بها فوقاها شر الدودة . لقد كان وجهه شؤما على الدائرة مذ عينه الباشا ناظرا لزراعتها

— الباشا يستحق ما يناله مادام يذهب الى القاهرة والاسكندرية فى أشد ايام التنقية فيمكث فيها الأسبوع والشهر كأنما هو مطمئن تمام الاطمئنان الى مهارة هذا الناظر وأمانته

— على أى حال ، نحمد الله على أن فتك الدودة بحقلنا كان أخف من فتكها بأكثر زراعات مزارعى الدائرة

— وماذا يفرحك فى ذلك ؟ ما الذى حصلنا عليه نحن الذين سلم المحصول على أيديهم زيادة عما حصل عليه الذين تلفت زراعتهم ؟ لقد أخذ كل منهم أردبين وأخذ كل منا ثلاثة ، فهل هذا الأردب الثالث هو الذى سنبنى منه القصور العالية ؟ ياشيخ !

— على الأقل لاتتراكم علينا الديون

— ديون ! أية ديون ؟ هل اكتسبنا منهم شيئاحتى يحملونا ديونا ؟ ألا يكفيهم أنهم يسخروننا لخدمتهم بلا أجر فيطالبوننا أن ندفع نحن أجرا لخدمتنا لهم ؟

— وكيف اذن يجمعون ثرواتهم ؟ ومن أين يأكلون اذا لم يأكلوا من عرق الفلاحين مثلى ومثلك

— أكلهم البلى ، ولا طاب لهم مأكل . أو لايصلح أمرهم مالم يأكلونا نحن ؟ ونحن من أين نأكل ؟ أنسرق ؟

— وهل نحن خير من الذين يسرقون ؟ لقد أصبح الجميع يعمدون الى السرقة. ولولا السرقة لما عاش كثيرون ممن يعيشون هنا . والله ربنا لم يأمر عباده أن يموتوا جوعا . وهؤلاء السادة يسرقوننا كل يوم ولكن أحدا منا لا يجرأ أن يتهمهم بالسرقة . والفلاح المسكين الذى يمد يده الى مازرع، كيف يعد سارقا ؟ أليس هو يسترد حقا اغتصب منه ؟

— دع عنك هذا اللغو الذى لا خير فيه ، فالرجل حين يقبض عليه متلبسا بالسرقة يمسى كالمرأة وتذل نفسه لهؤلاء الأذلاء ، ولكنه حين يتمسك بالشرف يكون فى كل وقت قادرا على أن يضع إصبعه فى عين أعظم عظيم

— من الصواب ماتقول ، ولكن ماحيلة العاجز ؟ أتظن من يلجأ الى السرقة يسرق مختارا ؟ هل هناك امرؤ يسره أن يكون لصا ؟ أبدا ، بيد أنه حين تضرب الفوضى أطنابها يفعل الانسان ماتهيؤه الظروف لعمله . على المرء أن يكون شريفا

مع الشرفاء الذين يقدرون للشرف قدره ، أماهذه الدائرة فأنها لاتميز بين المحسن والمسىء ولا تخجل من تسخيرنا طوال العام مقابل أردبى أذرةأو ثلاثة

— اذا كانت هذه الدائرة لا تميز بين المحسن . والمسىء فأن الله سبحانه وتعالى يميز بينهما فيأخذ المسىء بأساءته ويجزى المحسن بأحسانه

— ونعم بالله .الباشا نفسه قال ذات مرة : اذا كنت أظلمكم فسينصفكم الله منى يوم القيامة . ولكن يوم القيامة هذا سيطول انتظاره

— الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل

— فى اعتقادى أن المرء مهما آذى هؤلاء القوم فأن الله سيشمله بعفوه ورحمته، ولولا رحمته لأنزل سخطه بهم ومسخهم قردة

٨

مصلح بلا اصلاح

كان الشيخ مصطفى رئيس مدرسة القرية رجلا يثنى عليه الجميع وإن كان الكثيرون لا يحبونه ، فهو اعمق مما يجب أن يبدو وذلك علة نظر ابعض إليه بشيء من الريبة والحذر . لقد كان أرقى من كل من عرف القوم من رؤساء المدرسة الالزامية ، فقد تيسرت له فى بعض البلدان مخالطة الأفندية والأوساط المتعلمة وكانوا يهشون له لطيب معشره فأفاد كثيرا من اسلوبهم فى التفكير وتفتق ذهنه واتسعت معارفه ، ولكن معدنه القروى لم يفقد أثره فيه فظل محتفظا بحكمة القرويين القائمة على المشاهدة مع التزام الصمت والوقوف بعيداً عند كل الأرادب التى ليست لهم .

كان الشيخ مصطفى يرى كل مايجريه سيد البلدة وأعوانه بين الفلاحين من عمليات النهب والاستعباد ، وكان يدرك هذه الأمور على وضعها الحقيقى وإن كان المجنى عليهم لا يدركونها ، وكان يعرف بطلان مزاعم الباشا وضلال ادعائه وتسليم أعوانه له وفى مقدمتهم المأذون ، بالحق الألهى (الذى لا يناقش) فى التصرف فى شئون أبناء البلدة ، فى حين أن الذين يتآمر هؤلاء القوم على إذلالهم واستغلالهم كانوا لا يفقهون ذلك . وكان التحدث اليهم فى حقوقهم المهضومة ، يوقظ فيهم الحنق على من يريد أن يوقظهم من سبات عشرات القرون ويكلفهم عناء التفكير فى النهوض من سباتهم والتطلع إلى آفاق الحرية الواسعة . وكان الشيخ مصطفى يتألم لهم حتى ليهم أن يتقدم لعمل شيء ، ولكن ثمة أشياء كانت تقعده عن العمل : أولها اعتقاده ان من حقه أن يحافظ على حياته وعلى رزقه وعلى مركزه بين الناس، وثانيها معرفته بأنه ضعيف لا يقوى على الثبات طويلا فى حرب يشن غارتها على قوم طغاة وتقاليد راسخة، وثالثها سخطه على هؤلاء الفلاحين وعدم مقدرتهم على فهم مايقال لهم تلميحا وهو لا يجسر على التصريح ، وعدم رغبتهم فى عمل شيء للأخذ بناصر انفسهم ، اللهم الا تلك الشكايات اليائسة المتخاذلة التى يطلقونها فى الهواء على سبيل العادة أكثر

مما هى على سبيل التألم والتوجع ، ورابعها شعوره بأن الفساد ليس محليا ولا سطحياً بل هو عام متأصل الجذور الى حد يضيع معه كل جهد فردى فى مكافحته . وقد وجد الشيخ فى الحديث المشهور «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فأن لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الايمان » تكأة يستند اليها ، واذن فليكن الشيخ فى طليعة المجاهدين بقلوبهم فأنه يكون على أية حال يفعل شيئاً .

كان الشيخ مصطفى يعرف من منكرات « سيد البلدة » أكثر مما يعرف سواه وذلك لكثرة تردده على مصطبة الباشا ، فقد كان الشيخ حلو الحديث حاضر البديهة كثير الدعابة مع محاذرة أن يجرح احساس شخص ذى بال ، وكانت رواياته وملاحظاته تدفع السأم عن الباشا وصحبه فكان ذلك يحفزهم على استقدامه اليهم واستبقائه بينهم . وكان الباشا بطبيعة الحال لا يستغنى عن التلميح لخاصة اعوانه فى بعض الأغراض ، وكان معظم الحاضرين لا يلحظون هذه الايماءات واذا لحظوا بعضها لم يفطنوا الى ما تشير اليه ولكن الشيخ اللبيب كان يفطن اليها وكان يدرك مدى ما وراءها من سوء وشر ، الا أنه كان يحتفظ فى نفسه بما يدرك . فاذا استشار أحد الأهالى فى أمر وكان فى الاجابة الصحيحة ما قد يغضب الباشا عليه جاءت اجابة الشيخ مبهمة ملتوية وهو مقتنع فى نفسه أنه أدى واجبه وأن على السائل أن يكون ذكيا فيفهم ما فى دخيلة المسئول دون أن يكلفه مخاطر التصريح بكلام قد يؤخذ به . لقد ورد فى الحديث « خاطب الناس على قدر عقولهم » وبما أن هؤلاء الفلاحين لا عقول لهم فهو غير مكلف بمخاطبتهم .

كذلك كان يحلو له فى المصطبة أحيانا أن يمزج نكاته بحكم صادقة وخازة ، ولكنه كان يعنى فى نفس الوقت بجعلها غير مفهومة حتى لا يلحق وخزها أحدا . وكان ذلك يرضيه أشد الرضى إذ يقنعه بتفوقه وظهوره على سائر اعضاء المصطبة كما يسره أنه قد نكل بهم وهزأهم هزءاً وإن كانوا هم لم يحسوا شيئا من ذلك

فلما أن قدم إلى القرية ذلك الشاب المتحمس عبد الخالق أفندى بعد تركه الجامعة وشرع يذيع فى القرية نظريات جديدة ويبدى آراء جريئة ، علم الشيخ مصطفى أنه يستطيع

أن يركن اليه أكثر مما يركن الى سواه فقتا لفت روحاها بعض الشيء، ومع ذلك فأن الشيخ لم يتخل عن حذره فقد كان يخشى أن يجر عليه الشاب المتحمس بعض الأذى بطيشه وعدم تقديره لظروف الشيخ وملابسات عيشه، ولذا كان رغم تأييده له في آرائه بصفة عامة يجتهد في أحاديثه معه أن يأخذ أكثر مما يعطي وأن يبتاع - كما يقولون - أكثر مما يبيع .

٩

نظام الكون

ذهب مجاهد وصالح الى دار عبد الخالق أفندي ينعمان بقضاء السهرة عنده ويتزودان بما يفيض به من آراء تكشف عن حقيقة العالم وحقيقة مركزها فيه بحسب الواقع وبحسب ما ينبغي . وكان مجاهد أكثر من رفيقه تأثراً بهذه النظريات والتعاليم . لقد كان يحس بها تفتق ذهنه وتحيله شخصاً آخر ، وكان لديه من الرغبة الملحة في زيادة معارفه ومجابهة الحقيقة كيفما أسفرت ، مايميزه عن سائر أبناء البلدة على اختلاف مراتب تعاليمهم ، وكان قبل عبد الخالق أفندي يقصد الى الشيخ مصطفى ولكن الشيخ مصطفى لم يكن بنقع من غلته الا قليلا ، فلما قدم عبد الخالق أفندي أدرك الشيخ مايمكن ان ينتج من الاتصال بين هذا الفلاح الصلب الذي لا يتردد في أداء أي واجب ، وبين هذا الداعية المتحمس الذي لا ينقطع عن التحريض على الباشا وعلى ابنه ومأذونه وعمدته وناظر زراعته وكاتب زراعته .

لقد شعر الشيخ أنه يستطيع الآن أن يقاوم المنكر بشيء أكثر من قلبه وأن يرتفع درجة فوق « أضعف الأيمان » وذلك مع أمنه من نتائج ما قد يحدث

وأدار الشيخ مصطفى الحديث بلباقة جديرة به وكان يقرب النار من البارود وهو يضحك وينكت كأنما الأمر لا يعدو المزاح واستعراض بعض الحكايات على سبيل التفكهة

وملأ قدح الشاى وناوله لصالح وهو يقول مبتسما : قل لنا ياسيد صالح ، ما هو السبب فى استيائك من حضرة العمدة

وكان صالح سبق أن روى قصته لرئيس المدرسة ، ولكنه الآن مطالب بروايتها لعبد الخالق أفندى ، فبدأ يقول : لست أدرى والله ما العمل فى هذا العمدة الفاجر . لقد قصدته فى شعبان الماضى أشكو اليه الشيخ ابراهيم اذ أنه ينكر ديناً لى عليه قدره مائة وخمسون قرشاً ، فاستدعاه العمدة اليه ولعنه وعنفه ، واحتج الشيخ أنه مستعد أن يقسم على المصحف أنه غير مدين لى بشىء فأجابه العمدة : لست ممن تخدعهم عمامتك الخضراء ولست أقبل أن تقسم لى من أجل قرش واحد فكيف أقبل يمينك فى مبلغ كهذا

فابتسم الشيخ مصطفى وقال : الى هنا حسن

واستأنف صالح حديثه : وأبدى العمدة انشغاله فى ذلك اليوم بأمر هام وأرجأ متابعة النظر فى الموضوع الى الغد ، ولم أعلق أهمية على هذا التأجيل وانصرفت مطمئن الخاطر قرير البال

وبادرت حليمة امرأة الشيخ ابراهيم فقصدت الى العمدة بعد أن حشدت له شتى صنوف الحجج الناصعة والبراهين المفحمة فحمرت خديها وكحلت عينيها وزججت حاجبيها وبالغت فى الزينة ودخلت على العمدة والله أعلم كيف أقنعته . وذهبت أنا فى اليوم التالى الى العمدة وأنا كبير الأمل ، وجاء الشيخ ابراهيم وكرر استعداده لأداء اليمين ، فقال العمدة : يالله ياشيخ ابراهيم ! أأطلب اليك أداء اليمين من أجل مبلغ تافه كهذا وأنت حفيد الشيخ أبى القاطف ونقيب ضريحه والرجل الصالح الذى يعرف كل من فى البلدة ورعه وتقواه . والله لو أن المبلغ المدعى به مائة وخمسون جنيها لما طابت نفسى بأن أدعك تقسم اليمين . ألا ان كلمة بسيطة منك لمصدقة عندى أكثر من ألف يمين يقسمها سواك . وحدجنى بنظرة ازدراء واشمئزاز وقال لى : قم يارجل يانصاب وانظر أين أضعت نقودك ولا تفتر على القوم الصالحين . وهكذا طار المبلغ

وضحك الجميع ضحكة قصيرة مغتصبة . وسأل الشيخ مصطفى : ترى هل حملت اليه معها هدية أم كانت هى الهدية ؟

— لعل هذا وذاك ، فالرجل لا يتعفف عن شىء . « كالمنشار يأكل طالعا ويأكل نازلا »

— هو من أهل الاستمتاع زاده الله متعة . وهل تكره له أن يستمتع ؟

— أولا يحلو له ان يستمتع الا على حسابى ؟

— لا بأس فأنت جملها

— جملها أى والله ، ولكنى بركت

وتضاحك الجميع لهذا التناسب اللفظى الذى يعتبر فى بلاد الأرياف نكتة

وأراد الشيخ مصطفى أن يستزيد من سرد مساوى، العمدة بلسان غيره ، فقال : ولكنى أسمع أهل البلدة يثنون جميعا على العمدة !

— كيف يثنون عليه وهو لم يترك أحدا إلا أخذ منه . لقد دفع له البستانى عبد الغنى ريالين إذ دهمه ومعه ورقة من تبغ كان قد زرعه خلسة فى الحديقة !

— ريالين فقط ؟ مبلغ صغير على العمدة !

— ولكنه كبير على البستانى . وعند ما يبدأ تجفيف الترعة لتطهيرها فى « السدة الشتوية » ويخوض الفلاحون فيها لاصطياد السمك ، يفرض العمدة لنفسه على كل منهم نصيبا مما صاده ، ويظل طوال الأسبوع لا يذوق غير السمك

— لعله مصاب بالأحماض فهو يعالج نفسه هذا الأسبوع مستشفيا باللحم الأبيض وعلى كل فالقول المأثور إن الظلم إذا عم فهو عدل . كان يحق لك أن تبتئس وتحزن لو أنه كان يأخذ من واحد ويترك الآخر ، أما وهو يأخذ من الجميع فليس لك عليه من سبيل

— وما عسانا أن نعمل ؟ يقول المثل « ان كان أهل البلد يعبدون ثورا حش وارم له » وها نحن نحش ونرمى له ، بل هو لا ينتظر حتى نحش له بل يحش لنفسه بنفسه

وأخذ صوت الرجل ينفعل ويتهدج رويدا رويدا وأخذت نغمته تتحول من إثارة الضحك الى اثارة الحزن . وغلب الأسى على نفس عبد الخالق ، وأخذ فكره يذهب

كل مذهب فى البحث عن وسيلة للانقاذ ، ثم قال فى اهتياج : ولكن هذه الحالة محزنة حقا . أمامن سبيل الى اصلاحها ؟ لم لا يكون الحصول على منصب العمدية بالانتخاب ولمدة قصيرة

فقال الشيخ مصطفى : هذا تفكير سديد من الوجهة النظرية ولكنه لن يؤدى عمليا الى النتيجة المقصودة ما لم يشعر الفلاحون أن لهم شخصية وكرامة ، فلو أنك أجريت الآن انتخابا للعمدية فى هذه البلدة لفاز العمدة الحالى رغم كراهية الجميع له ، أو لفاز أى شخص يرشحه الباشا . أما السبب فى فساد العمد فليس مقصورا على طريقة تعيينهم ، بل يعود قبل كل شىء الى فساد الادارة عامة ، ولو كان الوزير صالحا لصلح المدير فصلح المأمور فالعمدة فالخفير ، ولاستتب الأمن . الا تعرف قصة قويق ؟

فأومأ الجميع برؤوسهم أن كلا ، فاستأنف الشيخ مصطفى الحديث : رفض «قويق» أن يأكل «البليلة» التى قدمتها له أمه ، فقالت للعصا اضربيه فرفضت فعرضت على النار أن تحرق العصا فرفضت ، فأومأت الى الماء أن يخمد النار فرفض فأمرت البقرة أن تشرب الماء فأبت فطلبت الى الحبل أن يخنق البقرة فعصى فاستنفرت الجرذ أن يقرض الحبل فتمنع فاستعدت القط أن يأكل الجرذ ، ونظرا لأن القط مدفوع بطبعه الى التهام الجرذان ، فقد بادر فأظهر استعداده لاجابة طلب أم قويق فجزع الجرذ حين رأى ذلك وبادر الى أم قويق يعرض عليها أن يقرض الحبل فسارع الحبل يسأل أين البقرة أخنقها فاونت البقرة أن فغرت فاها لابتلاع الماء فتهيأ الماء لاخماد النار فتضرمت النار استعدادا لأحراق العصا فتحركت العصا تهم بضرب قويق فانكفأ قويق يزدرد البليلة

فهز صالح رأسه متعجبا وقال : حكاية بالغة !

وقال عبد الخالق افندى : لاشك أن اعتراضك لايخلو من الصواب ، إلا أن المهم أن نعالج الموضوع من وجهة اصلاح النظام لا من وجهة اصلاح النفوس ، فأن نفوس البشر غير متهيئة للصلاح فى وقت قصير ، وانما تلوح النفوس صالحة عندما تنصلح الأحوال فلا يكون هناك ما يبعث على اتيان أعمال السوء ، فاذا قلنا مثلا

إن الفوضى سائدة فى وزارة من الوزرات ، الأوقاف مثلا، فليس ذلك لأن موظفيها من طينة غير الطينة التى جبل منها موظفو سائر الوزارت ، بل لأن النظام السارى فى تلك الوزارة أشد خللا من النظام المتبع فى غيرها .

فقال صالح بلهجة العاقل الذى ينظر الى الأمور من وجهتها العملية : وهل نحن سنغير نظام الكون . هذا النظام السائد هو الذى وضعه الله سبحانه وتعالى .

فقال عبد الخالق أفندى وهو يضغط على الألفاظ تبيانا للأهمية مايقول : بالعكس إن الله لا يمكن أن يضع نظاما سخيفا كهذا .

فقال الشيخ مصطفى تأييدا له : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

وتحرك مجاهد للتحدث بعد أن ظل طوال الوقت يصغى فى صمت : ان الله لم يقل للعمدة أن يرتشى ولم يقل للدائرة أن تنهب المزارعين ولم يقل لناظر الزراعة أن يضطهد الفلاحين ويزيدهم بؤسا على بؤس .

وسر عبد الخالق أفندى لما أبداه مجاهد من التقدم فى تفهم تعاليه وزاد ملهبا حميته : ولم يقل للفلاحين أن يصبروا على مثل هذه المعاملة .

فقال صالح : وماذا تريدنا على أن نعمل؟

— تطالبون بوضع نظام عادل ثابت للايجار الزراعى يضمن لكم أن تنالوا نصيبا معقولا مما تنتجه الأرض .

— نطالب من ؟

— تطالبون أصحاب الأراضى وتطالبون الحكومة وتطالبون الذين يطلبون اليكم أن تمنحوهم أصواتكم فى الانتخابات .

— يعدوننا بتحقيق رغباتنا وبعد الفوز لا يوفون بالوعد .

— اذا سلموا بهذه المطالب قبل الانتخاب نكون قد قطعنا الخطوة الأولى ، فلا يبقى بعد ذلك سوى خطوتين : أولاهما أن يجيب بعض أصحاب الأملاك شيئا من

هذه المطالب والثانية أن يسن تشريع يحول هذه التصرفات الاختيارية الى قانون اجبارى .

— ليت الأمر يكون كذلك .

— سيكون كذلك ولا ريب ، فقد ارتقى العالم كثيرا ولم يعد يحتمل هذه التصرفات المتخلفة عن العهد الأقطاعى ، وقد قطعت مصر بعد الحرب العالمية الماضية شوطا كبيرا فى مضمار المدنية والتقدم ، ولم يبق فيها أكثر تأخرا من الفلاحين فهم فى حاجة الى نهضة قوية . هذا ما ينبغى أن تفهموه ، وهذا ما ينبغى ان نسعى اليه

كان المجتمعون ينظرون الى عبد الخالق افندى نظرهم الى ساحر استطاع أن ينقلهم فى لحظة واحدة من عالم العبودية واليأس الى عالم الرجاء والحرية

وأبصروا عطية افندى ناظر الزراعة قادما فقطعوا حديثهم فأن قدومه الى هذه الدار لم يكن بالأمر المألوف عندهم ، وكان وجهه متجهما بعض الشيء وإن كان هادئا كل الهدوء . وقد أحس صاحب الدار بالعاصفة التى توشك أن تهب ولكنه قام بما تمليه عليه قواعد المجاملة فرحب بضيفه الكبير فى شيء من الجمود ، وتكلف أن يجعل وجهه ينم عن التساؤل عن سبب هذه الزيارة

وجرع عطية أفندى قدح الشاى المقدم اليه ، بسرور رغم نية الشر المبيت ، فهو ممن يرون وجوب التمسك بالشكليات على أن لا يؤثر ذلك فى سير الجديات ، فأذا عادى المرء أحد الباشوات فله أن يقتله ، ولكن عليه أن يعامله باحترام حتى لحظة التنفيذلأن الباشواتمن حقهمأن يحترموا

كان ناظر الزراعة يتوقع أن يقضى ثلث ساعةفى تبادل تحيات معادة مكررة ، قبل أن يفتتح الحديث فيما جاء بشأنه ، ولكن عبد الخالق افندى لم يكن متعودا إطالة التحيات على الطريقة الريفية « كيف حالك ، طيبون ، سلامات ، أهلا وسهلا شرفت ، آنست . كيف حالك ، طيبون » وكان فضلا عن ذلك متوتر الأعصاب ففضل أن تنشب المعركة فى الحال ، فقطع حبل السكوت بتحية أشبه بالاستفهام

فقال : زيارة مباركة ! خير ان شاء الله ؟

فتنحنح ناظر الزراعة ورسم على وجهه ابتسامة صغيرة وقال كأنما يتكلم فى أمر لا خلاف عليه : الأمر ومافيه أنى قادم الآن من عند امرأة عمى ، وقد علمت منها أنك ترغب فى الزواج من ابنتها زينب

فأجاب عبد الخالق افندى فى شىء من الفتور . أجل ، حدث ذلك. فاستأنف عطية افندى : ولذلك جئت أخبرك أن تصرف نظرك عن هذه المسألة

فقال عبد الخالق : كيف ؟ وبدا عليه أنه لم يفهم وجه تدخل عطية افندى فى الأمر

سكت مجاهد وصالح إذ لم يكن هناك محل لتدخلهما فى الأمر الذى يفترض أنه لا يعنيهما والذى لم يعلما به الا الساعة . ورأى الشيخ مصطفى أن مركزه المحترم فى البلدة يقتضيه أن يتدخل لتهدئة النزاع الذى نشب فى حضرته ، وقد تعمد أن يرضى صديقه عبد الخالق دون أن يغضب ناظر الزراعة ، فقال : لماذا ياحضرة الناظر ؟ عبد الخالق افندى رجل كامل لاعيب فيه ، ولو كان لى أنا ابنة عم لكنت أسر اكبر السرور بمصاهرته

فقال عطية افندى : وهل قلت فيه شيئا ؟ عبد الخالق افندى أخونا ، وهو شاب ذكى متعلم وابن أناس طيبين ، وليس فيه أى مطعن ، وكل ماهنالك أنها ابنة عمى وأنا أولى بها

فأجاب عبد الخالق افندى : كيف تكون أولى بها وقد طلبت يدها فرفضت طلبك رفضا باتا

— أجل ، لقد أبدت تمنعا ، ولكنى لاأعير هذا التمنع احتفالا ، وعلى اية حال فأنا غير نازل عنها

فضحك عبد الخالق افندى وقال : غير نازل عنها ؟ ماهذا الذى تقول ؟ أهى متاع لك تملك أن تنزل عنه أولا تنزل ؟ ألم تحظر عليك أمها أن تعود الى مفاتحة أى منهما فى هذا الشأن ؟

— أمها ؟ وما شأن أمها فى ذلك ؟ هل هذه الأمور من شئون النساء ؟

لو ان عمى كان حيا لما تأخر عن أن يزفها إلى ، أما الآن فوجودك بيننـا هو الذى يفسد الأمر . والبنت طائشـة بعض الشىء ، وقد ضاعف طيشهـا بضع السنوات التى قضتها فى المدارس . ومن السهل أن يغريها قولك إنك تربيت فى مصر وإنك تلقيت مبادىء التعليم الجامعى وما إلى ذلك من هذه الأمور التى ليس لهـا قيمة كبيرة بالنسبة لما لى من نفوذ ومكاسب ولقرابتى منها ، فأنا ابن عمهـا ولا يحق لانسان أن يتقدم لخطبتها إلا اذا كنت أنا غير راغب فيها . ومن يفعل ذلك فقد اعتدى على ، ومثل هذا الاعتداء ليس مما يسكت عنه بداهة . وإنمـا حملت نفسى مؤونة قول هذا لك ، لأنى أعـلم أنك أقمت معظم حيـاتك فى القـاهرة ، ولا ريب أن العادات السارية فى العاصمة غير العادات المرعية فى الأرياف

— ولا ريب أيضا أن عادات العاصمة خير من عادات الأرياف ، ولذلك ينبغى على أهل الأرياف أن يستبدلوا بعـاداتهم الرجعيـة عادات العاصمة المتمشية مع المدنية .

— عادات العـاصمة لا تصلح الا فى العاصمة ، وعنـدما ينتقل المرء الى بلاد الفـلاحين ينبغى عليـه أن يتطبع بطبـاع الفلاحين ، ونحن هنا نتبع شريعة آبائنا وأجدادنا .

— هل كان لآبائك وأجدادك شريعة غير الاسلام ؟ إنى أعرف أن الاسلام يبيح لـكل إنسان أن يتزوج بمن يتراضى معها على الزواج ولا يعرف شيئا اسمه حقوق أو أولوية لأبناء العمومة . أما هذه العادات التى تتحدث عنها فقد كان يقام لها وزن فى الزمن الغابر حين كانت الحـكومة عاجزة عن حفظ الأمن وكانت الأسر الـكبيرة تشن الغارات إحداها على الأخرى فاذا ماقتل فرد منها كان أقرباؤه ملزمين فى شرع الرجولة الريفية وحسب سنة الـكفاح عن الحياة أن يثأروا له ، وكان هذا التأهب المستمر لملاقاة الموت يخولهم الحق ان يقترنوا ببنات أقربائهم رغم ما يمـكن أن يكون بينهم من فارق فى الثروة . وقد كان الثراء فى تلك الظروف الأقطـاعية أقل شأنا منه فى هذا العهد الرأسمالى . وقد علمت من زينب أنك تريدها لثروتها

وعلى ذلك فأنت تحاول استغلال التقاليد الأقطاعية للحصول على أسباب السيادة في هذا العهد الرأسمالي

كان عبد الخالق افندى يلقى هذا الشرح وكأنه يخاطب جمهوراً، ثم تحول نحو ناظر الزراعة فألفاه متجهم الوجه بادى الضجر يقول : هذه فلسفة لا أفهمها . وكان عبد الخالق افندى بالبداهة لا يتوقع منه أن يفهمها ولكنه أراد أن يشعره بضآلته ازاءه ، وكان يتوسع أحيانا في الشرح ولكنه كان يتحدث بأسلوب القاضى الذى يسبب حكمه بالحيثيات دون أن يكون في تعليلاته معنى لامكان استئناف المناقشة في الحكم النهائى .وقد حرص على ألا ينتهى حديثه دون أن يضمنه الرد على تهديد بتهديد وتفضيل بتفضيل ، فقال : أريد أن أقول إن الحكومة أصبحت قوية في هذه الأيام ، فقد كثرت الطرق الزراعية وتحسنت وسائل المواصلات وانتظمت الادارة الى حد كبير ، فاذا ما وقعت في بلد من البلاد جريمة أو شروع في جريمة لم يلبث المجرم أن يقبض عليه وتصفد يديه بالأغلال . ومن ثمت فقد أصبح الناس في غير حاجة إلى حماية أبناء عمومتهم وليس هناك ما يضطرهم إلى قبول مصاهرتهم ما دام في الميدان من هو أفضل منهم من حيث السن والعلم والخلق والأسرة ومن حيث الملكية أيضا

وكان ناظر الزراعة يحسب انه يجتذب بحديثه عن عادات الأرياف وضرورة التطبع بطباع الفلاحين ـ ذينك الفلاحين الجالسين ، فأخذ ينظر اليهما مستجديا المعونة ولكنه وجد منهما كل اعراض وصدود ، فآثر أن يختم هذه المبارزة التى أظهرت رجحان خصمه عليه فنهض وألقى كلمته الأخيرة : والله يا سيدنا الافندى ، أنا نصحتك أن تبتعد عن طريقى ، ولك أن تفعل ما تشاء

وأجابه عبد الخالق بالقول الفصل : أعرف أنى حر ، وليس هنالك من يستطيع الانتقاص من حريتى . وأما عقد قرانى فسيكون بعد شهرين فأن تفضلت بالحضور

كان لنا الشرف الكبير .

فاتقدت عينا ناظر الزراعة من فرط الحنق ، ولكنه لم يجد سوى السكوت، وخرج وهو يدبر فى رأسه أسوأ التدبيرات .

ووجم المجلس لحظة ثم قال مجاهد : يحسن أن تحتاط لنفسك ياعبد الخالق افندى فليس مثل هذا العداء بالأمر الهين الذى لا يؤبه له . اتق شر من أسأت اليه

ولم يكن عبد الخالق افندى فى حاجة الى هذا التحذير ، ومع ذلك فقد صمم على تحدى الخطر الى النهاية ، وقال : انه أهون من أن أبالى به .

فقال صالح : لكم أودى عدم المبالاة فى بلادنا بأرواح العباد، والأحجى بالمرء هنا أن يعيش فى حيطة مستمرة وحذر دائم وأن يظل فاتحا عينه كعين الذئب

وقال الشيخ مصطفى وقد عاوده أسلوبه الخاص الذى يخلط الجد فيه بالهزل : صدق المذكور فاحتط لنفسك ، والا فاذهب وأمن على حياتك . على الأقل يستفيد الورثة .

١٠

أنات وصرخات

دوى صوت بوق السيارة فى القرية بضع مرات يتحدى الباشا وبطانته، ونزل الأستاذ نبيه المحامى منها وتوجه من فوره الى منزل عبد الخالق افندى يدبر معه شئون الانتخاب

كان الأستاذ نبيه شابا صغير الجسم نوعا نحيفه نوعا، على وجهه ابتسامة لا تفارقه، وكان أنيق الملبس ذلق اللسان خفيف الحركة ، تبدو عليه سيماء الارتيـاح الى نوع حياته والأمل فى اغتنام غنائم أخرى والوصول فى زمن قريب الى مركز لا بأس به فى الحكومة أو فى المجتمع

لقد كانت سجاياه هذه تساعده في مهنته فهي مهنة تحتاج مع القليل من العلم الى الكثير من التهويل ، ولكنه لم يقنع بأن يكون المحامي الناجح في الناحية بل اراد أن يبني لنفسه مستقبلا أكثر لمعانا وأشد تألقا ، فحاول الالتحاق بأحد مناصب وكلاء النيابة فلم يوفق، فلم يبق أمامه الا أن يزج بنفسه في غمار الانتخاب فرشح نفسه منافسا لمظهر باشا ، وبما أن مظهر باشا يمثل الأمير الاقطاعي فليكن هو ممثلا للناحية الأخرى ، للفقراء واليتامى والمساكين وأبناء السبيل

وكان له في قصر مظهر صديقان أحدهما يساعده بكل ماوسعه وهو عبد الخالق افندي والثاني يساعده سرا بتشجيعه وبأمداده في تحفظ ببعض المعلومات والمشورة وهو الشيخ مصطفى

قال الأستاذ نبيه : كيف صحتك ياشيخ مصطفى ؟ اننا لم نسمع من زمن بعيد نكاتك الرائقة وقفشاتك البارعة في مظهر باشا

فأجابه : أما صحتي فهي الشيء الوحيد الذي ينبغي أن أحمد الله عليه ، ولكنها تاج على رأسي لا أشعر به لأني لست مريضا ولا غنياً . وأما مظهر باشا فأن القفش لايجدى معه شيئا فقد أصبح في نظر قومه وليا من أولياء الله . ذلك أنه كان علم من الصحف أن الحكومة مزمعة رفع الضريبة الجمركية على أعواد الثقاب فسار الى حداد القرية وقال : اصنع لي زناداً أشعل به النار فقد يرتفع ثمن أعواد الثقاب . فلما تحقق قوله بعد أيام وارتفع ثمنها زعم الأهالي البسطاء أنه يعلم الغيب وما يخفى

— أعوذ بالله . لاريب أنك سعيد بعشرته

— للغاية : وإن كانت معظم أحاديثه على نمط واحد ، فهو يسألني عن الساعة فأجيبه إنها السادسة مثلا ، ثم لاتنقضي خمس دقائق حتى يعيد السؤال فأخبره أنها الساعة وخمس دقائق ثم يسألني ثالثة بعد دقيقتين فأقول إنها السادسة وسبع دقائق . وكثيرا ماتكون أحاديثه مملة الى أقصى حد حتى انني اذا بدأ الحديث وكانت الساعة الخامسة ونظرت الى الساعة بعد ساعة وجدتها لاتتجاوز الخامسة وخمس دقائق ، فأنا أشعر حين اضطر الى مجالسته ساعتين أنني أنصت الى هرائه منذ أربع وعشرين ساعة

أما الأصناف اتى يتسلى بها فى المصطبة فهى آية فى الأدهاش ، ولا سيما المأذون أو « حضرة القاضى » كما يسمو نه وعمله هناك أن يبادر الى الموافقة وابداء الأعجاب مقدما بالآراء التى يظن أن الباشا سيبديها،وهو لا يتورع عن تأييد سخافات الباشا بآى من الذكر الحكيم يستعملها فى غير ما وضعت له ، ويخيل الى أنه لا يحفظ من القرآن الا آيات « ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات » و « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وما فى ذلك المعنى

فسأل الأستاذ نبيه : ولم لا تعارضه وتفند تأويلاته ؟

فأجابه : لأن الأعمى يغضب عندما يرانى أقول له يا أعمى ، ولست أريد أن أغضب انسانا . لقد اختططت لنفسى خطة أن أبتعد عن كل ما ليس من شأنى ، فأنى هنا غريب لا أهل لى يذودون عنى ولا قبل لى بمناوأة أحد ، ولا سيما متى كان للأمر علاقة بالباشا ففى وسعه ان يقصينى عن هذه المدرسة بين ليلة وضحاها ومفتشو التعليم يعملون دائما على ارضاء اعيان البلاد ، يضاف الى ذلك انى على الرغم من مسالمتى للجميع ما زلت أجد صعوبة فى حمل الآباء على الحاق أطفالهم بالمدرسة والباشا يقول انهم سيصبحون أفندية ويمتنعون عن العمل فى الحقول

فقال عبد الخالق افندى : لو أن الذين يتعلمون كانوا خمسة أو عشرة فقط لتطرق الزهو اليهم فعلا وامتنعوا عن احتراف الزراعة تمييزاً لأنفسهم عن باقى اخوانهم الأميين ، أما حين يتعلم الجميع فسيبقون جميعا فلاحين ولكن فلاحين متعلمين .

ووافق الشيخ مصطفى على هذا الرأى واستأنف قائلا : أما المأذون فأنه ينتقد برنامج التعليم الالزامى ويزعم أن التعليم الأولى كان خيرا منه اذ كان برنامجه فى معظمه مقصورا على تحفيظ القرآن ، وهو يذيع بين الأهلين أن تعليم البنات سيؤدى بهن الى قراءة القصص الغرامية وتبادل المكاتبات مع العشاق . ولولا ان الاهالى مرتاحون الى شخصياً لما بقى فى المدرسة عدد يذكر . وقد أسدى الى عبد الخالق افندى يدا بيضاء إذ جعل يطوف معى ببيوت الأهلين ويقنعهم بأرسال أولادهم

وبناتهم الى المدرسة .

فالتفت الاستاذ نبيه الى عبد الخالق افندى وقال له : لعلك ترينا هـذه الهمة فى الانتخاب ، وترسل فى هذه الظلمة نورا يكشف للناس عن حقيقة مظهر باشا .

فأجابه عبد الخالق : اطمئن من هـذه الناحية فسأقضى على نفوذه هنا كما قضى على مستقبلى باستيلائه دون حق على جانب من أموالنا كنت استطيع الانفاق منه على استكمال دراستى والحصول على الاجازة الجامعية .

فقال الشيخ مصطفى متظرفا : نحمد الله على أنه لم يأخذها كلها .

فقال عبد الخالق افندى : أوتظنه تخلى عن الباقى كرما منه . لقد أبدى على نقيض ذلك منتهى الجشع والصرامة وأصر على أن يأخذ كل ما ترك والدى . وعبثاً حاولت تذكيره أن والدى أنفق فى زراعة الأرض التى استأجرها منه أكثر مما أنتجت ، وأن فتك الدودة بقطننا لم يكن الا نتيجة لعدم جمعه هو لها من زراعته الناجمة فأصابت العدوى زراعتنا رغم عظم المجهود الذى بذلناه لاتقائها ، ولكن هذه الحجج ذهبت معه سدى . والواقع أنه ما كان يجمل بى أن ارتجى منه اقتناعه بما يناقض مصلحته ، وعلى ذلك لجأت آخر الأمر الى تهديده فأخبرته أنه إن قضت له المحكمة ببيع أراضينا فسأخبر دائنيه كيما يستولوا هم على ثمنها باعتباره جزءا من الدين المطلوب لهم منه ، وبذلك رضى أن يكتفى بأخذ ثلثمائة جنيه وأعطانى مخالصة .

فأبدى الاستاذ نبيه أعجابه قائلا : الواقع أنها فكرة باهرة تدل على ما كان يتوقع لك من مستقبل باهر فى عالم الاقتصاد .

فتنهد عبد الخالق افندى وقال : أنا أيضا اعتقد ذلك ، ولكنى لم تكن لى حيلة فى الأمر ، فقد حاولت التعلم بلا مصاريف فوجدت المجانية تكاد تكون مقصورة فى هذه الأيام على أنجال الأغنياء وأقربائهم والمحسوبين على كبار الموظفين . وفكرت فى بيع الثمانية عشر فدانا التى بقيت لى والتعلم بثمنها ولكنى عدلت عن ذلك لأن ثمن الأطيان منخفض فى هذه الأعوام ولأنى وجدت عدد المتخرجين

فى كلية التجارة أصبح يعد بالمئات وجلهم لا يجدون عملا يقتاتون منه الا أعمال كتابية وضيعة بمرتبات ضئيلة . وليس هناك ما يحدو بى الى افتراض أنى سأكون من بين القليلين من المحظوظين الذين سيوفقون للحصول على مناصب مناسبة .

— إنى أشاطرك رأيك فى أن التعليم العالى لم يعد وسيلة حسنة للكسب .

— وقد نتج عن ذلك أنه لم يعد يكسب صاحبه الاحترام الذى كان يكسبه اياه فيما مضى . هـذا مظهر باشا مثلا ، كثيرا ما يقول فى سياق أحاديثه : فلان اكترى للدفاع عنه ولدا محامياً أو يعالجه ولد دكتور .

فقال الشيخ مصطفى متحمساً : وهو نفسه ،أليس هو أيضاولداًصاحب أطيان ، وأطيانه مرهونة ؟ لو أنه عاد فلاحاً من جديد لما ميزه أحد من بين عمار الفلاحين ، اللهم الا بسماجته وادعائه إن بقيت له هذه السماجة وهذا الادعاء بعد زوال أطيانه ، ثم هو لا يتأخر عن الزهو بالافتاء فى أية مسألة قانونيه أو طبية أو هندسية أو أدبية أو فنية . أما الجالسون عنده فبعضهم يصدقه فعلا والبعض الآخر يتظاهر بتصديقه « وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم »

وهكذا مكثوا مدة يعددون نقائص مظهر باشا والباشا اذ ذاك فى قصره لا يشعر بما يهرفون .

١١

مساوىء هذا العهد

اكتمل المجلس من عبد الخالق أفندى والأستاذ نبيه وصالح وابن أخيه عبد القوى ومجاهد وعمارة وهم القرويون الذين يثق بهم عبد الخالق أفندى ، وقد قدم لهم الأستاذ نبيه باعتباره أكثر محامى المديرية تبرزاً فى مهنته ، ثم قال لهم : وعدا نبوغه فى مهنته فهو فلاح ابن فلاح فيمكننا أن ننظر اليه على أنه واحد منا، وهذا مايجعلنى أؤيد ترشيحه للنيابة عن هذه الدائرة ، اذ أننا نريد أن يكون النائب عنا

شخصا يفهمنا وتفهمه . أما مظهر باشا فلا يفعل أكثر من الجلوس فى المجلس النيابى كأنه قطعة من أثاث المجلس ، وفوق ذلك فأن اسقاطه فى الانتخاب يؤدى الى زوال سيطرته على البلدة ، وانه لجاثم الآن عليها كالكابوس . وقد اخترتكم من بين أبناء البلدة للنظر فى هذا الأمر ، فأنتم ـ فيما أعلم ـ أكثر رجال البلدة نخوة وشهامه

انتهت التقدمة وأطرق الجميع برؤوسهم يفكرون فى عظم هذه البلوى الجديدة التى القيت على عاتقهم ، فتقدم الأستاذ نبيه اليهم وقال : المسألة ياخوانى أن هذا الرجل كان شؤما على البلدة منذ حل بها،فهل تعلمون أنه لم يتمكن من شراء هذه الآلاف من الأفدنة من الدايرة السنية الا بعد أن خدعكم أنتم وآباؤكم واستعمل الغش والتزوير لمنعهم جميعا من التقدم لشراء بعض الأراضى لأنفسهم؟

فقال مجاهد . هذا حق . هذه حوادث نعرفها جميعاً

فاستطرد الأستاذ : اذا كنتم تعرفونها فينبغى أن تعرفوا مغزاها . ومغزاها هو أن هذا الرجل هو سبب خراب البلدة ، ولولم يكن يعيش بينكم لكانت بيوتكم مبنية بالحجر بدلا من الطين ، ولكان كل منكم يعمل فى حقله الخاص فينال جزاء عمله كاملا ، ولكان لكل منكم عدد من الجواميس والأبقار والخراف بدلا من بقائكم فى هذا الفقر المدقع لاتذوقون اللحم الا يوم السوق .مادمتم تعرفون هذا فينبغى أن تكونوا مستائين من ذلك وينبغى أن تظهروا استياءكم ، ومظهر هذا الاستياء أن تسقطوا فى الانتخاب ذلك الذى يستغلكم ويستعبدكم

وهل تعرفون مدى رغبة هذا الرجل فى اذلالكم ؟ لقد اشترى من أرض البلدة ما استطاع شراءه ولما عجز عن شراء جميع أراضيها أغرى الخواجة شتاين النمسوى ببيع بيوته فى المدينة وشراء مابقى من أراضى الدائرة السنية المعروضة للبيع فى البلدة ، وهكذا آثر الباشا أن يتملك الأجنبى أرض البلدة على أن توزع على الفلاحين ، وذلك خشية أن ينشأ بينهم أفراد ميسورو الحال يأبون العبودية ويرفضون أن يدعوه يتخذهم مطايا له ، مما يكون معناه أن جنس الفلاحين غير

مقضى عليه أن يكون دائما أبداً مستعبداً للباشوات « أسياد البلاد »

ومع ذلك فأن جناية هذا الرجل عليكم لم تقف عند هذا الحد ، فقد ظل شؤمه يلاحقكم طوال العمر . أنتم الآن تركبون الحمير مسيرة نصف ساعة لبلوغ محطة السكة الحديدية الضيقة ، وهذا يضيع وقتكم ويكلفكم مشقة كبيرة . وقد كانت شركة السكة الحديدية تعتزم مد الخط الى هنا ولكن مظهر باشا هو الذى عارض فى ذلك باسمكم وظل يلح على مدير المديرية أن يتدخل فى الأمر زاعما أن امتداد الخط الى بلدتكم يقطع أرزاق أصحاب الحمير والجمال التى يؤجرونها لنقل المحصولات الى المحطة ، وأخذ فى نفس الوقت يهدد الشركة بحمل الأهالى على مقاطعتها إذ أنهم يكادون يكونون جميعا من زراع أرضه ، وأخيراً سئمت الشركة الأمر وتخلت عن المشروع . فأما سبب محاربته لهذا المشروع النافع فهو خوفه أن تمد الشركة فرعا من الخط الى تل السماد الكفرى الذى كان يسمد منه أراضيه فتنقله وتبيعه للراغبين فى شرائه

فانظروا الى هذا المثل الذى يبين لكم عقلية هذا الرجل ونفسيته : إن خوفه من احتمال وقوع خسارة شخصية لا يوجد ما يرجح حدوثها جعله يحارب بجميع الوسائل مشروعا نافعا لو أنجز لجنيتم منه أرباحا وازدادت الحركة التجارية فى بلدتكم فكان شأنها غيره اليوم

فقال مجاهد وهو يكاد يتميز من الغيظ : لقد كنا نعلم مفردات هذه الوقائع ولكننا لم نكن نفهمها على هذا الوضع وبهذا الترتيب

فأبرقت أسارير الأستاذ واندفع : حسن . وقد كان الخواجه شتاين ينقد الفلاح الأجير أربعة قروش فى اليوم فى حين أن مظهر باشا لم يكن يدفع غير قرشين . وكان يسوغ هذا الفرق بغنى الأجانب زاعما أن الأربعة القروش عند أحدهم بمنزلة اربعة مليمات بالنسبة لأحد المصريين . وقد خدع الفلاحون بذلك حينا ، الا أنهم لم يلبثوا أن يمموا وجوههم شطر الخواجة ضاربين بنغمة الوطنية الكاذبة والتعصب الدينى عرض الحائط .

وهنا ذهب مظهر باشا الى الخواجة قائلا : لقد ألحقت بى وبنفسك أكبر الضرر إذ رفعت الأجور ، وإنه لمن البله أن يدفع المرء أجوراً مرتفعة كهذه فى حين أن الفلاح يعد نفسه سعيداً لو حصل على نصفها ، وانى لمستعد أن أعاونك فى الحصول على أى عدد شئت من الفلاحين بالأجر المخفض . وظل يلح عليه ويعمل على اقناعه حتى أجابه الخواجة الى طلبته وخفض الأجور . ومن هذا ترون أيها الأخوان أنه يكره لكم الخير ولو جاء من طريق سواه فلا هو يرحمكم ولا هو يريد أن يدع رحمة الله تهبط عليكم

فقال عمارة : عليه لعنة الله . وهتف مجاهد : يا للخزى

واستمر الأستاذ فى حديثه : على أن الفلاحين المتازين ظلوا مع هذا يؤثرون الأجنبي لأنه كان يعطيهم حقوقهم كاملة عند حلول آجالها ، فأخذ مظهر باشا يحاربه سراً ويحرض الأهالى على سرقة « هذا الأجنبي اللعين » . وانتهى الأمر بالرجل أن باع أرضه للباشا ، بثمن رابح على أى حال، وحصل الباشا على ثمن الأرض عن طريق رهنها هى وغيرها للبنك . وهكذا أقصى الفلاحون الخير عن أنفسهم وتنمروا للرجل الذى كان يرأف بهم لأن الباشا عرف كيف يستغل عواطفهم الوطنية والدينية فى تسخيرهم لمصلحته وحملهم على الاضرار بأنفسهم

وكانت الحكومة فكرت فى حفر ترع تروى الأراضى البور المجاورة فظل يسعى لدى المدير هنا ولدى الوزارة فى مصر حتى صرفها عن هذه الفكرة . وقد ساعدته الظروف فى ذلك بانتقال الباشمهندس الذى كان متحمسا لذلك المشروع . أما سبب مناوأته للمشروع فهو خوفه أن ينزح أهل البلدة المتذمرون من حالتهم الى الأراضى المستصلحة فيضطر هو الى رفع الأجور وارضاء زراعه وعماله

وخلاصة هذه الوقائع أن هذا الرجل يكره ما فيه نفعكم ويعمل على اقصاء الخير عنكم لأن مصالحه تتعارض مع مصلحتكم ، لذلك يعمل على حربكم دون هوادة أو رحمة ودون تورع أو تعفف . واذن فان واجبكم أن تحاربوه كما يحاربكم وأن تعملوا على خدمة مصلحتكم بحزم وعزم كما يعمل هو على خدمة مصالحه

فصاح صالح : وكيف نحاربه ؟ بين لنا ذلك . وعقب عليه مجاهد : سر أمامنا ونحن نتبعك

فأجاب الأستاذ : المسألة هينة ميسورة ، فهى لاتقتضى منكم الا أن تسقطوه فى الانتخاب

فرد صالح : وكيف نسقطه فى الانتخاب ونحن جميعا أجراء عنده

هنا انبرى عبد الخالق افندى ، فقد سبق له أن فكر كثيرا فى هذه النطقة فرأى أن يجلوها لهم . قال : إنكم تؤدون للباشا عملا معينا مقابل أجر معين ، فهو يعطى أحدكم فى اليوم عشرين مليما أو ثلاثين مليما مقابل الاشتغال عشر ساعات فى عزق الأرض أو حرثها أو مسح خطوطها ، فتى اشتغلتم الساعات العشر لم يبق له ما يطالبكم به ، فهو قد اشترى منكم بالملاليم التى يعطيكم اياها عرق جبينكم ، ولقد بعتم بهامقدارا كبيرا من العمل الشاق ولكنكم لن تبيعوا بها رجولتكم ولن تنهاونوا فيما يختص بضمائركم ولو مقابل مال الدنيا جميعا . ومادمتم ترون انه لا يذود عن مصالحكم ولا يمثل آراءكم فمن الخطأ الفاحش بل من الجناية على أنفسكم وعلى أولادكم أن تدعوه ينوب عنكم فتمكنوه من تنفيذ أغراضه ضدكم .

— سيقول لنا كيف تأكلون خبزى ولا تعطونى أصواتكم ؟

— اذا قال ذلك فقولوا له إنك أنت الذى تأكل خبزنا ، فأنه حين يعطى الرجل منكم ثلاثة قروش مقابل اشتغاله من مشرق الشمس الى مغربها يكون هو قد احتجز لنفسه ثلاثة قروش أخرى لأن عمل الرجل منكم ينتج ما ثمنه ستة قروش

فقال صالح : الفلاح كالشمعة يحرق نفسه لينير لغيره .

وقال مجاهد : ولولا الفلاحون لما كان هناك باشوات .

فقال عمارة : وما قيمة باشويته وقد أضحت جميع أطيانه مرهونة للمصارف .

فرد صالح : ولكن حكومة « اشتكوفلوساكيا » ستفك رهن الأرض .

فوضع الأستاذ يده وراء أذنه وسأل مندهشاً :حكومة ماذا؟ تشيكوسلوفاكيا وماهى المناسبة ؟

فقال عبد الخالق افندى يوضح الأمر : المناسبةهى أن وزيراً تشيكوسلوفاكياً كان قد مر من هنا من سبع سنوات فى طريقه الى المناطق الأثرية المجاورة، ودعاه الباشا للغداء عنده ، فهو الآن يستغل ما أنفقه فى هـذه الوليمة لأيهام الفلاحين أن الوزير المذكور تأثر حين علم أن أرض الباشا قد رهنت ، ولذا فهو يخابر حكومته لتفك رهنية الأرض .

فضحك الأستاذ لغرابة هذه الفكرة ، ولكنه سرعان ما أعانته بديهة المحامى على اختراع فرية يمحو بهـا أثر فرية خصمه . فتظاهر بأنه يعمل فكره ويحصر ذاكرته ثم قال : ولكنى أذكر أنى قرأت فى الصحف أن ذلك الوزير قـد توفى . أجل ، بكل تأكيد ، لقد مات . أما الوزير الذى حـل محله فلا يعرف مظهر باشا ولا يحب أن يكون له به شأن . وتضايق عبد الخالق افندى من هـذه الكذبة ولم يرد أن يجارى الأستاذ فيها كما أنه لم يرد أن يكشف عنها، فقال : مات أو لم يمت سيان ، فهل كان سيفك رهنية الأرض حقا ؟

فنظر اليه الأستاذ متبرماً من هذه المثالية التى قـد تعرض مشروعه للبوار ، وقال فى لهجة حازمة : عفواً . لا داعى للمجادلة ، فقد مات الوزير وانتهت المسألة. وقد كانت جنازته رائعة .

فقال صالح : اذن فستنقل ملكية الآرض للبنك ولكن الباشا يقول إنه لخير أن يضحى أهل البلدة بأرواحهم من أن يعيشوا بدون أرض ويتركوا أرضهم للأجانب .

فرد عبد الخالق : إنه يحاول استغلال وطنيتكم من جديد لتنفيذ مآربه الشخصية فيجعلكم تشاكسون البنك كيما يتقدم هو فيطلب اليه أن يمنحه بعض المزايا مقابل مساعدته لموظفى البنك الزراعيين . وإذا كان يكره الأجانب الى هذا

الحد فلم رهن لهم الأرض ومكن لهم فى البلدة . ألا إنه لأجنبي عنكم مثل سائر الأجانب .

لقد رهن أراضى البلدة ليبعثر الأموال فى انتظاهر بالعظمة والأبهة ، وجرد أهل البلد جميعا من ثرواتهم وحرمهم من فرص الثراء ثم استغلهم واستولى على ثمار كدهم عشرات السنين كى ينفق هو فى النهاية كل هـذه الأموال المجموعة بعرق الجبين ، على ملاذه الخسيسة .

فقال عبد القوى وقد مسح العرق المتصبب من جبينه : « ما يعمل به القرد فى سنة يطعم به الحمار فى يوم »، وقال عمارة: لقد أنفق فى عرس ابنه ثلاثة آلاف جنيه

فعقب عبد الخالق افندى قوله: وها هو ذا ابنه الآن مدين للبدالين والقصابين. وليس هناك مزارع يزرع فى مزرعة « البك » الا والبك مدين له غير راغب فى أداء ما عليه . إن الرجل الحر يضحى كل ما عنده فى سبيل التخلص من الدين، وقد ضحى هو فى سبيل التخلص من الدين بشىء واحد وهو ذمته ، فقـد أنكر الكثير من ديونه وبذلك تخلص منها . وقد حدث فى الصيف الماضى أن كلمه أحد مزارعيه تليفونيا يطلب أردبا من القمح فكلفه أن يحضر اليه بمنزله فى المدينـة فذهب الرجل وكابد مشقة الانتقال ونفقـاته وضياع يومه ، وأعطـاه البك أمراً لأمين المخزن فرجع الفلاح مستبشرا يمنى نفسه بالقـدرة على شراء بعض لوازمـه ، ولـكن أمين المخزن رفض تسليمه القمح ، إذ أن البك عاد فكلمه تليفونيا طالبـا اليه ان لا يعتمد الإذن بصرف القمح

وأظهر الأستاذ تقززه قائلا : أف . أى صنف من البشر هذا ؟

فرد عبد الخالق افندى : صنف خنازير . ثم التفت الى الفلاحين وتابع كلامه : أتذكرون حين كان الباشا يطالب الحكومة أن توفى عنه دينه للمصارف ؟ من أين تجلب الحكومة المال الذى يطلب الباشا اليها أن تؤديه عنه ؟ منى ومنكم فالحكومة لا تخلق المال بل تجمعه منا بطرق مباشرة وغير مباشره ، فأنتم حين يشترى كل منكم تبغا بثلاثين قرشا فى الشهر تكونون قد دفعتم أكثر من نصف هذه المبالغ ضريبة

للحكومة وذلك كما تشيد بها المستشفيات لمعالجتكم وتبنى المدارس لتعليم اولادكم وتنشىء الطرق المعبدة لتيسر لكم سبل الانتقال و نقل محصولاتكم الى مختلف انحاء البلاد ، أعنى أن الحكومة لا تحصل هذه الضرائب لتنفقها على مظهر باشا وأمثاله

فقال مجاهد : نحن لا نرضى عن انفاقها فى غير المصلحة العامة

فتقدم الأستاذ نبيه يضرب على نغمته المعهودة ويرمى الى هدفه مباشرة : إن الطريقة لأظهار عدم الرضاء هى اسقاط الرجل فى الانتخاب . وقد رشحت نفسى وسأكون المحامى عن حقوقكم . وانا أدعوكم الى مناصرتى وأتعهد لكم أن أعوضكم – قدر الأمكان – عن اى ضرر يصيبكم من جراء مقاومتكم لمظهر باشا ومناصرتكم أياى

فقال عبد القوى متحمسا : ونحن نعاهدك على العمل مهما لحقنا من جراء ذلك . هات المصحف نقسم عليه وعلى ما فيه من آيات المائة والأربع عشرة سورة آية آية .

فقاطعه عبد الخالق افندى بأصرار : كلا كلا ، لا لزوم للقسم

فحدجه الأستاذ نبيه بنظر شزر تجسم فيه سخطه على هذه التصرفات الملتوية للغرض ، ولكن عبد الخالق افندى لم يكترث ومضى يخاطب الفلاحين : نحن نعمل على تحريركم من قيودكم فلا معنى لأن نقيدكم بأغلال جديدة . ينبغى أن لا يقيدكم غير ضميركم ، وما دمتم واثقين من أنفسكم فاحتفظوا بحريتكم فى العمل ، وأعتقد على أى حال أنه لن يطرأ سبب يدعوكم الى تغيير خطتكم فى بلوغ الغرض الذى نسعى اليه

وكان مجاهد يثق به ثقة عمياء فقال له : أنت إمامنا فسر فى طليعتنا ونحن نتبعك . وقال صالح وقد رأى أن يقول شيئا : « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » فقال عبد الخالق افندى مصححا . ينبغى ألا نعتبر أنفسنا فئة قليلة فالفلاحون هم الكثرة الساحقة فى البلاد ، وإنما ينقصهم التنظيم والتوجيه الصالح

وارتحل الأستاذ نبيه بعد أن عاهده الحاضرون على أن يكونوا أعوانه الى النهاية ، وتفرق الفلاحون وقد طابت نفوسهم عن تضحية فضلات السعادة التى ينعمون بها فى سبيل ما اعتقدوه الصالح العام

١٢

بيوت من حجر

كان عبد الخالق افنـدى فى الزمن الأخير يكثر من التردد على منزل خطيبته وهو أحد المنازل القليلة المبنية هنالك بالحجر ، فقد كان الجبل غير بعيد من البلدة ولـكن نفقات النقل كانت تجعل نفقات البناء بالحجر تعادل ثلاثة أمثـالها باللبن ، ولذلك كان عدد الذين تيسر لهم بناء منـازلهم بالحجر لا يتجـاوز عدد أصابع اليدين، وهم :

المقاول الذى يقوم بحفر القنوات وتطهير المصارف فى أرض الباشا واحيـانا بتطهير الترعة الـكبيرة لحساب مقاول أعظم شأنا .

وأحد التجار ممن يتجرون فى شتى الأصناف فيبيع الشاى والسكر ويشترى البيض ويبيعه ويضارب فى القطن والحبوب

والعمدة وهو يكنز كل ما تدره عليه مزرعته الصغيرة مكتفيا بأنفاق ما يجمعه من الرشا وأكل ما يقدم اليه من الهدايا الاجبارية من سمن وعسل ولبن ودجاج وبيض وخيار وبطيخ وما الى ذلك ، وهذا عدا الأكلات المباشرة مع سيده الباشا تارة وتارة أخرى عنـد من يزعم لهم أنه صديقهم ويقتضيهم القيـام بتأدية حقوق الصداقة

وأمين مخازن الدائرة وقـد ظل جسمه وثروته يتضخمـان ولـكن أحدا من من كارهيه وحاسـديه لم يستطع أن يثبت عليه جريمـة تغضب الباشا . وقد وشى به بعضهـم مرة لدى سيـده قائلين إن لديه فى المخزن كيلتين كيـلة كبيرة يتسلم بها المحاصيل وكيلة صغيرة يكيل بها البزور للزراع والأذرة للمستخدمين ، وسأله الباشا فكان دفاعه أنه يلجأ الى ذلك أحيانا خيفة أن يحدث فى المخزن عجز بسبب السوس أو الجفاف أو غير ذلك ، وأنه اذا ظهرت آخر العام زيادة فى المخزون

فالدائرة هى التى تنتفع بها . وقد أصم الباشا أذنيه بعد ذلك عن سماع الشكاوى فى أمين مخزنه ولا سيما إن هذا الأمين كان متمتعا بحماية السيدة الصغيرة حرم البك إذ هو يساعدها على ابطال سحر كارهيها ويصحبها أحيانا الى المدينة لشراء بعض المشتريات . وكان مرضيا عنه أيضا من زوجها البك إذ كان يكافئه بالتفاهم مع بعض فتيات البلدة واحضارهن الى منزله فى انتظار سعادته

وكذلك ابتنى بعض صغار الزراع منازل من الحجر وهم الذين قدموا الى البلدة حديثا للاقامة بين أقرباء لهم ، وكانوا قبل ذلك فى بلاد أخرى فباعوا أطيانهم هناك واشتروا بدلها هنا ، ولم يكن لهذه البلدة فضل عليهم فيما أحرزوا من ثروة صغيرة

أما ناظر الزراعة وكاتبها فكانا بحكم عملهما يقطنان منازل مملوكة للدائرة

وكانت تلك المنازل الحجرية التى بالبلدة قبيحة المنظر ولكنها كانت حجرية على أى حال ، فكان الذى يبتنى لنفسه واحداً منها ينال من الاعتبار فى البلدة ما يناله فى المدينة من ينعم عليه بلقب «بك»

وكان منزل زينب من أكبر تلك المنازل وأحسنها فقد كان والدها ممن يأخذون من الحياة كل ما يستطيعون أخذه من المتع المشروعة ، وكان أثاث المنزل — على قدمه — ينم عن جودة الأصل . وقد كان هذا المنزل الكبير وهذا الأثاث الوثير من دواعى الحاج عطية افندى فى طلب يد زينب .



١٣

زواج تجانس وانسجام

جلست زينب على الأريكة فى البهو ترنو بعين الحب الى خطيبها ، وأمها الى جانبها . وكان عبد الخالق افندى على الأريكة المقابلة مقطب الجبين بعض الشىء يتأهب لهجوم مفاجىء ينال به غرضه ، فلما حانت له فرصة مناسبة قال لخطيبته : التقيت اليوم بابن عمك فأشاح عنى بوجهه بما يدل على أنه ما يزال جادا فى انذاره إياى بألا أقترن بك ، مصمما على أن ابتعد عن طريقه كما يقول

فهبت الأم ثائرة تذود عن سعادة ابنتها : طريقه ؟ أية طريق له هنا ؟ كسرت ساقه

وقالت زينب : لله ما أسمجه . لقد أمسيت لا أطيق رؤيته . ولو أن رجال العالم قضوا جميعا لفضلت أن أموت عانسا على أن أقترن به « العزوبة ولا زواج الندامه »

كانت الأم تكره عطية افندى وأباه وكل من يمت الى المرحوم زوجها بصلة القرابة ، فقد عملت أسرة الزوج على احباط زواجه منها لحمله على التأهل من قريبة لهم ، فلما تم — على الرغم منهم — اقترانه بها ظلوا يكيدون لها ويشنعون بها ، فهى من ذلك الوقت تكن لهم أبلغ الكراهية ، ولذلك ما نعت فى زواج عطية افندى من ابنتها من قبل أن يرجع عبد الخالق افندى الى البلدة

كان عبد الخالق افندى يعرف ذلك عن الأم ويعرف من البنت حبها له ، ومن ثم لم يكن يخشى أن يحول شىء بينه وبين تحقيق امنيته ، ولكنه كان ضيق الصدر نافد الصبر كالقاطرة الممتلئة بالوقود يشعر بالحاجة الى الانطلاق . وكان ذلك هو الطبع الغالب عليه فلم يكن يطيق أن يشغل ذهنه بتدبير أمر يضطر الى ارجاء تنفيذه زمنا طويلا ، فهو اذا اعتزم شيئا أمضاه فى التو رغم ما يمكن أن يعترض طريقه من العقبات ، فاذا حالت حوائل قوية دون سرعة انجازه تخلى عنه حتى لا يضنى

نفسه بالانشغال به

قال عبد الخالق : انى لا أكترث له بداهة ، بيد أنى أفضل أن تقصر أمد هذه المشاكسات العقيمة بتقريب موعد الزواج ، فأذا وافقت فأننا نركب ثلاثتنا غدا الى المدينة فأبيع مابقى من المحصول ونشترى حلة العرس وغيرها من الحوائج ثم نعقد قراننا بعد أسبوع واحد . وأما عن المهر ففى وسعى أن أنقدك خمسين جنيها مقدم الصداق

وافق هذا الاقتراح رغبة الأم فهى أيضا تفضل إنهاء هذا النزاع قبل أن يستفحل، كما يسرها التعجيل بستر ابنتها والفرح بها . وكان لها من البصيرة مايعصمها من تعريض زيجة رابحة كهذه للضياع فى المطاولة والمساومة فالزواج الموفق فى اعتقادها يشرى بالمال ولا يضيع من أجل المهر وما اليه

قالت له : لن يكون ثمت اختلاف بيننا على مثل هذه الشئون . وفى يوم العقد أعطيك خمسين جنيها أخرى تكمل بها المبلغ مائة تنقدنا إياها أمام الناس .

أطربه هذا الاقبال عليه وجعله أشد اقبالا عليهم ، ولكنه عاد فاستنكف أن يدعى أمام الناس أنه دفع أكثر مما تكلف فى حقيقة الواقع ، ورأى أن امتيازه على أهل البلدة فى التربية والتعلم وغيرها كان قمينا أن يخوله دفع مهر أقل مما كان يدفعه سواه لنفس العروس ، فليست أقدار الرجال بما يدفعون من المهور ، بل تناسبهما أحرى أن يكون عكسيا

ولكن الأم لم تقره على نظريته فهى ترى أن اعلان المهر القليل يجعل لكارهيها والحاقدين عليها فرصة الشماتة بها وبابنتها وتعييرها ، وليست مزايا العريس بجاعلة المهر القليل كثيرا فى حساب الناس ، وإن البعض ممن هن أدنى منها شأنا يتقاضين مهرا يزيد عن هذا القدر

وتدخلت زينب فى الأمر فلم يطل الجدل وقال عبدالخالق : فليكن ماتريدين مادامت هذه رغبتك ، وعلى ذلك فليكن الزواج يوم الاثنين بعد أيام عشرة

فاعترضت الأم: كيف يكون يوم الاثنين ؟ وهل يتزوج أحد فى يوم الاثنين ،

« عروس الاثنين فقر أو دين » الزواج إن لم يعقد يوم الأحد أو الخميس كان حريا أن يتوقع له نهايه مشئومة لا قدر الله . وليس هنالك ما يفضل زواج الخميس ، « يوم الخميس كان فيه النبي خير عريس »

ورد عبد الخالق افندى بأن هذه خرافات لا يليق الأذعان لها . وذكر أن أبناء المدن الكبرى يعقدون قرانهم فى مساء الخميس ليستمتعوا هم ومدعووهم بعطلة الجمعة إذ أن فيهم الكثير من الموظفين أما أبناء الأرياف فكل أيام الأسبوع سواء لديهم وليس هنالك ما يدعو الى تقيدهم بيوم معين

وهنا تدخلت زينب مرة أخرى وهى تعرف أن طلبها لن يرد ، فاستمهلته بعض المهلة لتهيئة شوارها فتم الاتفاق على أن يعقد الزواج فى مساء الخميس بعد أسبوعين وقرأوا الفاتحة وباركت الأم « لخير عروس وعريس فى العالم » ، ثم تركت الخطيبين فى خلوتهما لتعد لهما قدحين من شراب الورد

***

وأقبل الحبيبان يتعانقان بلهفة وقد زالت الحواجز من بينهما

ــ ما كان أشد تعطشى ياحبيبتى لقدوم هذا اليوم السعيد الذى أستطيع فيه أن أضمك الى صدرى

ــ اه ما ألذ هذا . لقد كان لا يشغل فكرى الا شخصك ياحبيبى ولا يتجه خيالى الا نحوك ، وها هى أحلامى تتحقق . أنا أسعد فتاة فى الوجود

ــ ليس فى وسعى أن أصف لك مقدار حبى . لقد شدهنى جمالك حين رأيتك للمرة الأولى عقب عودتى من القاهرة ، ولم يكن يدور بخلدى أن هذه البلاد الفقيرة تحوى ملكات جمال . لقد كنت شديد الأسى حين اضطررت للعودة الى البلدة للأقامة فيها ، ولكنك جعلتنى سعيدا بهذه العودة

ــ وأنا لا أكتمك أنى افتتنت بك مذ شاهدتك وكنت كأنى أعلم أنك لى ياحبيبى ، وكنت أحصى الأيام والليالى منتظرة هذا اليوم تتقدم فيه لتأخذنى اليك

ـ لئن كنت تأخرت الى اليوم ، فما ذلك الا لخشيتى أن تردينى خائباً . لقد آثرت أن أعيش بخيال محلق وأمل معلق على أن أتعرض لمواجهة فقدان كل ما اشتهيه وأحلم به . بيد أنى لم أستطع الانتظار أكثر مما انتظرت فأنهيامى بك يضرم فى قلبى ناراً لاقبل لى باحتمالها

ـ بل كانت النار فى قلبى اقوى ضراما ، وكان عذابى فوق الطاقة ومركزى شديد الحرج

ـ ما أسعدنى بك يازينب

ـ وقد بهرنى تصرفك النبيل فى مسألة ميراثك إذ مزقت المبايعة الصورية التى تركها لك أبوك ليحرم بها شقيقتيك من معظم نصيبهما الشرعى فى الميراث . حقا ان مركز المرأة فى الريف لفى غاية المهانة ، فقد حكم الرجل عليها ألا تشغل فى الحياة الا مكاناً وضيعاً فلما أذعنت لهذا الحكم وجدها الرجل جديرة باحتقاره وأعرب عن هذا الاحتقار بحرمانها من معظم نصيبها فى الميراث

ـ ذلك حكم الجهل وذلك منطق أيام العبودية، وستكون رسالتى هنا مكافحة هذا التفكير الرجعى والعمل على ترقية مدارك الأهلين

ـ يسرنى أن أشاركك فى جهودك ، وانى منذ عودتى من المدرسة مازلت دائبة على انارة أذهان الفلاحات اللواتى يترددن علينا

وتطورت المناقشة من المناجاة بالآمال الغرامية الى الحديث عن الآمال الاصلاحية المشتركة ولكنها لم تلبث أن عادت سيرتها الأولى ، وقال عبد الخالق : انى لفخور بك ياحبيبتى وسعيد بتوافق تفكيرنا ، فهذا هو أساس الهناءة الزوجية ، فهتفت من أعماق قلبها : أنا سعيدة ياعبد الخالق . سعيدة كل السعادة يا حبيبى

واندفعت تقبله ويقبلها وقد سكرا بنشوة الحب

١٤
بدل غلط

فتح باب الدار وكانت الأم فى الغرفة الخارجية المجاورة له تعد شراب الورد ، فصاحت تستوقف الداخل وتنبه ابنتها الى دخوله : من هذا ؟

فأجابها صوته القبيح : أنا عطية . مساء الخير .

— خير !

— لقد قلت لنفسى اذهب لزيارة ابنة عمك .

— هى فى الداخل مع خطيبها .

— مع من ؟ خطيبها ؟ وهل لها خطيب غيرى ؟

فاحمر وجه عبد الخالق افندى وتحدى هذا المتطفل بقهقهة عالية .

ودخل المنهزم وقد ارتسم الشر على وجهه ، وحيا زينب : مساء الخير يا ابنة العم . أراد بهذا النداء أن يذكرها بما بينه وبينها من صلة القربى ولكنها أجابته إجابة من لا يعرف هذه الصلة أو يعترف لها بأهمية : خير يا عطية أفندى .

فجلس الرجل دون دعوة وقال : جئت لأراك . ثم صعد نظره فى خطيبها وقال : أنت هنا يا عبد الخالق افندى ؟ لم أرك .

— لا ضير . وأنت ، ما الذى جاء بك الى هنا ؟

— ما الذى جاء بى الى هنا ؟ أى سؤال هـذا ؟ أنا فى بيتى يا عبد الخالق افندى .

— كان ذلك فيما مضى . أما الآن يا عطية افندى فقد نقلت الملكية وسيتم تسجيل العقد فى يوم الخميس الذى يتلو الآتى ، أى بعد أسبوعين . فأنت الآن فى بيتى ، ولذا فأنا أكرمك.

كان عبد الخالق افندى يود لو ألقى به الى عرض الطريق ولكنه خشى اغضاب أصحاب الدار ، فرأى تأجيل الهجوم الحاسم الى ما بعد القران . أما عطية افندى

فقد علم أنه لا قبل له بمنافسة غريمه . ولذلك أعد عدته ليحول دون زواجه منها بالقوة ، وهذا ماجعله يقول الآن مهددا : لا يزال فى الوقت فسحة ، ومن الآن الى نهاية الأسبوعين يأتى الفرج .

— يلوح الأمر غير ذلك .

— إه . سنرى .

وأدركت زينب أن هذا المتطفل يهدد بتكدير هناءتها فقررت أن تصدمه صدمة موئسة . فتقدمت نحوه تقول وهى تلوح بيدها : ماذا جرى يا عطية افندى؟ قل لى ما الذى تريده ؟

فأجابها فى برود وسماجة : الأمر يسير للغاية . لقد سبق أن قلت لعبد الخالق أفندى أن يتنكب طريقى ، وقلت له هذه ابنة عمى وأنا احق بها ولا يمكن أن تتزوج من غيرى .

فصاحت به وعيناها تنطقان احتقارا : أنا أتزوج منك ؟ منك أنت ؟ هل جننت ؟ اذهب وتزوج من فاطمة بنت الأسكاف أو غزالة أخت أبى أحمد أو غيرها من اولئك اللواتى تشرب الشاى عندهن كل ليلة ، أو نجية التى جرى وراءك زوجها حتى القيت بنفسك فى الترعة . أنا لا أتزوج من رجل مثلك ، أيها المرتشى الذى يأكل زاد السمن من الفلاحات المسكينات مقابل استخدام أولادهن فى أعمال الدائرة .

— هذه افتراءات ومحض ترهات

— وهل الخمسة الأفدنة التى اشتريتها أخيرا ، دفعت ثمنها من المال الذى ورثته عن أبيك ؟ أليس من المسروقات التى استلبتها من الدائرة والرشى التى ابتززتها من الفلاحين . إن مرتبك الذى تناولته منذ التحاقك بخدمة الدائرة الى الآن لا يكفى لشراء فدان واحد .

ارتبك ناظر الزراعة ولم يعرف كيف يدرأ عن نفسه هذه الاتهامات التى لا يستطاع السكوت عليها فى هذا الموقف وإن كان هو فيما بينه وبين نفسه لا يرى

فيها شيئاً يعيب ، فقال : وما وجه الغرابة فى ذلك ؟ هذا شأن الكثيرين من اكبر رجالات البلد . لقد اكتسبت أموالى بمهارتى . أما ما تسمعينه عنى فأقاويل باطلة يمليها على الناس الحقد والحسد ، فأنت تعلمين أن سعادة الباشا يقضى جل أوقاته فى مصر وأننى أنا المسئول عن هذه الدائرة الواسعة وأننى أتصرف فى هذه الخمسة الآلاف من الأفدنة كأنها ملكى ، وقل أن يوجد هنا مزارع صغير أو فلاح أجير لم أوقع عليه فى يوم من الأيام عقاباً كالطرد من الزراعة أو خصم أيام من الأجر فهم يرهبوننى جميعاً ولكنهم عاجزون عن الوقوف فى وجهى ،ولذا يلجأون بداهة الى السب ويتقولون على الأقاويل ، بيد أنها كلها أقوال تافهة تنم عن غيظ وقهر و « الخوزق يشتم السلطان »

— اذا كنت تعتبر هذه التهم الشنيعة أقوالا تافهة فأنت التافه .

— حقا ؟ أراك تغيرت كثيراً وتبجحت عيناك . ما شاء الله !

كان عبد الخالق افندى قد ترك خطيبته تكيل الشتائم لهذا الطفيلى فلما راى أنه ابتدأ يرد عليها تدخل وقال : اذا كان المرء سلطاناً ويشتمه الناس فلا بأس ، أما أن يكون المرء صعلوكا لا يساوى ثلاثة مليمات ثم يعرض نفسه للشتم المستمر فهذا هو الذى لا يطاق .

فقال عطية افندى متوعدا : أقصر لسانك يا عبد الخالق افندى .

فأجابه : بل أنت أقصر رجليك عن المجىء هنا ولا تتردد على هذه الدار لأنك تضايق أهلها .

فغمغم عطية افندى بصوت لا يبين : بل أنت فيما يظهر الذى تضايقت روحه من مكانها بين جنبيه

* * *

ودخلت الأم حاملة «صينية» عليها أقداح من شراب الورد وقد سمعت معظم المناقشة فانتهرت عطية افندى قائلة : ماذا جرى ؟

فأجابها سائلا : هل أنا أضايقكم حقاً يا زوجة عمى ؟

فأجابته على الفور : اذا كنت تحسن سلوكك وتلتزم جادة العقل والأدب وتكف عن التعرض لابنتى فلا مضايقة

فقال وقد أمضته الهزيمة : هذا ظريف جدا ! على أى حال ، فى استطاعتنا نحن أن نتفاهم معاً بعد حين ، أما الآن فأنى أتحدث الى عبد الخالق افندى ، فقد نبهتك يا عبد الخالق افندى أن لا تقف فى طريقى فأن أحدا فى هذه البلدة لم يحاول ذلك من قبل ، وأنا قادر على اكتساح كل من تحدثه نفسه بالوقوف فى طريقى

فقال عبد الخالق افندى فى استخفاف

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً * أبشر بطول سلامة يا مربع

ولم يفهم عطية افندى معنى البيت ولكنه فهم من نغمة القائه أنه يحوى معنى من معانى الازدراء والتهكم ، فقال : مامعنى هذا الكلام : فأجاب عبد الخالق افندى: هذا كلام راق لايفهمه الا الذين تلقوا العلم فى المدارس مثلى ومثل زوجتى الحبيبة زينب . وربت على خد زينب مدللا

لذعت عطية افندى تلك الأشارة الى أميته كما أكمدته معاملة غريمه لزينب معاملة المسيطر على قلبها ، فقال :علوم المدارس هذه لا تساوى فى الحياة عندنا مليما واحدا ، فنحن لنا هنا علوم أخرى تلزم معرفتها لكل من يريد الأقامة بيننا ، ولنا تقاليد وعادات خاصة . وقد قلت لك من قبل إن مراعاة هذه التقاليد أدعى لراحتك ونصحتك بأن لا تقف فى طريقى

فالتهب وجه زينب من فرط الغضب وقالت له : طريقك ها هى ! وأشارت نحو الباب قائلة بلهجة الآمر : هذه هى طريقك فاخرج من هنا

وقهقه عبد الخالق افندى فقال عطية : ضحكك هذا لن يثنينى عما اعتزمته . فأجابه عبد الخالق : بداهة ، فلو انك كنت تنثنى عما تعتزمه كما ضحك منك هازىء !! وسعك أن تعمل شيئاً قط

فاربد وجه عطية افندى ونهض وهو يقول : طيب .

وابتسم ابتسامة مغتصبة يريدبها ان يبدى وثوقه الشديد من الفوز النهائى

ورأت زينب ان ما اصابه من الكيد والتنغيص أقل مما يستأهله متنطع مثله ، فصاحت بأمها : ألست فرحانة بزواجى من حبيبي يا أماه ؟ اذن فزغردى

فدوى صوت الأم بالزغردة مديدة رنانة ، فقال الشرير : ولم العجلة ؟ استبقى زغاريدك هذه الى ليلة العرس

وأخذ الجيران يتقاطرون على الدار رجالا ونساء وأطفالا ، فتسلل عطية افندى الى الخارج

وعلم القادمون بخبر الخطوبة فأزجوا تهانئهم للخطيبين وأخذوا يعربون عن ابتهاجهم بالخبر ويثنون على العريس فهو فى نظرهم خير شبان البلدة ولا يليق بالعروس الجميلة الا هو

ووجدت الفتيات فرصة للطبل والغناء فسارعن الى منازلهن وأحضرن دفوفهن ثم عدن وانتظمن حلقة وأخذن يغنين بنغم ريفى أغانى يتوارثنها أما عن جدة ، وكلها متفجرة فى سذاجة عن غريزة جنسية قوية مكبوتة ، فأغنية تنهال باللوم والتثريب على الأعزب الذى لم يتزوج واحدة منهن وتصف آلامه الجسدية المتقدة وشقاءه وقلقه واخفاقه فى الاستمتاع بالوسائل التى يحاول الاستعاضة بها عن الزواج ، وأنشودة ينشدنها بتحمس المقتنع بأحقية قضيته وهى على لسان فتاة تعتذر عن استسلامها وعدم مقاومتها قائلة كيف السبيل الى المقاومة وهو شيخ بلد كبير الجاه عظيم السطوة ، وأغنية ثالثة تتبسط فى وصف أسلوب العريس فى ادخال السرور الى قلب عروسه ، وهى أغنية تكاد تكون قائمة بأسماء ملابس كل منهما

ودوى صوت طلقين ناريين فانقطع الغناء لحظة وتساءل الفتيات عن مصدر الصوت ولكنهن لم يعلقن على ذلك كبير أهمية فقلما تمر ليلة لا يسمعن فيها صوت الطلقات النارية من الحقول المجاورة ، يطلقها أصحاب الحقول بلا داع أو لاصطياد ذئب أو لارهاب لصوص وهميين أو لطرد النعاس عن أنفسهم

واستمر الفتيات ينشدن اغنية بعد اخرى ، وأغانى الريف لايستغرق القاؤها الا وقتا قصيرا ، ولذلك يتحتم على الفتيات أن يحفظن عددا منها ينشدنه أكثر من مرة فى الليلة الواحدة

ولكنهن لم يتح لهن اكمال الانشاد ، فقد ولج الباب فلاح مذعور جاء يهرول ويقول : قتيل !

فتقدم منه عبد الخالق أفندى وصاح به : اين ؟

فارتسم الرعب على وجهه وبصق فى جيبه (صدر قميصه) وقال : لا حول ولا قوة الا بالله

فهزه عبد الخالق أفندى من ذراعه وقال له : ماذا بك ؟ من ذا الذى قتل ؟

فقال الفلاح ولسانه مايزال معقودا من الرعب : معطف ! فتقدمت نحوه زينب وقالت تحفزه على الكلام : أى معطف ؟ مالك قد أرتج عليك

فتمالك الفلاح وعيه بعض الشيء وقال : قتل واحد يرتدى معطفا ، وقد شاهدت جثته مكومة بجوار حقل المرحوم عبد الـ . . . بجوار حقل عبد الخالق أفندى فحسبته هو . أستغفر الله العظيم . ثم بلع ريقه وقال : ويلى. لقد أبلغت الأمر للعمدة على هذا الظن ، وكان العمدة عند الباشا وفى المجلس كثيرون، ثم جئت أنبئكم بالخبر

وسارع المهنئون والمغنيات الى الخارج لمشاهدة من وقعت عليه الجريمة

وعبس وجه عبد الخالق وقال : لقد عرفت القتيل ، هو صالح . مسكين لقد جنيت عليه اذ أودت له الخير . تبرعت له بمعطفى القديم ليتقى به قر الشتاء ويستر به جسده العارى فكان كفنه . لقد حسبوه اياى ، وانا هنا أستمع الغناء والضحك

وكان قد بقى الى جانبه احد الفلاحين،فقال متحمسا:هذا شغل حضرة الناظر . ولكنه سرعان ما أدرك أنه تورط فى مشكلة ليس فيه كفاية للاضطلاع بها ، فارتعدت فرائصه وقال مستدركا : لا شأن لى بهذه المسائل . وولى منصرفا

وجلس عبد الخالق وهو كالمحموم ، وأخذت تدور فى رأسه الأفكار عن هذه الفوضى الضاربة أطنابها فى البلدة ، والجريمة المخيمة على ربوعها والكفاح الواجب للقضاء عليها . وجاءت زينب فجلست لصقه ، وأقبلت الأم هاشة تقول : الحمد لله على سلامتك أنت . فأجابها : سلامتى أنا ؟ الواجب هو سلامة المجموع ، هو القضاء على الأوغاد الذين لا يعيشون الا بالجريمة . لقدأعلنوا الحرب على فلا مناص من خوض غمارها

وقالت الأم تهدئه : خير لنا يابنى أن نبتعد عن الشر ، « بت مغلوبا ولا تبت غالبا »،فأجاب : « من استغضب ولم يغضب فهو جبان »

١٥

الحرب من أجل السلام

كان الجريح طريحا على الأرض ينزف الدم من جراحه ، والجمهور يحيط به بكل بلادة ، لا يتقدم اليه بأسعاف ولا يقوم بأكثر من ترديد جمل لا قيمة لها فى هذا الظرف : لاحول ولا قوة الا بالله . عليهم لعنة الله . ألم يجدوا امرءا يطلقون عليه النار غير هذا الرجل الطيب . لن يترك الله جزاءهم بما كسبت أيديهم

وقدمت زينب ثم قدم عبد الخالق افندى فوجد الجريح مايزال حيا يئن ويتأوه، فبادر يضمد جراحه بالمئزر الذى أسرعت زينب بتقديمه اليه

وعاد الخفير يخبر حضرة العمدة أن عامل التليفون لم يتأ منذ خمس دقائق يحاول الاتصال بنقطة البوليس على غير جدوى إذ الخط مشغول بسبب الاشارة المرسلة الى عمد البلاد بتكليفهم بأرسال برقيات التأييد للوزارة . ولم يدر العمدة ما يعمل ، فقد سبق أن خاطب الخفير جمعية الاسعاف من التليفون الخاص (غير الحكومى) الذى بسراى الباشا فردت الجمعية أنها لا تسعف المصابين فى حوادث جنائية الا إذا طلب اليها ذلك عن طريق البوليس ، وهكذا يصدق المثل « الى أن يأتى الترياق من العراق يكون الملسوع قد مات »

واستمر عبد الخالق افندى يضمد الجراح ، والجريح يقول له : لا فائدة . انتهى الأجل

وتقدم العمدة ليتمم مهمته (الرسمية) فسأل الجريح : هل تعرف قاتلك ؟ فأجابه اجابة لا تنقع غلة : قتلنى انتهاء أجلى . قضاء محتوم

فالتفت العمدة الى عبد القوى وسأله : هل تعرف قاتل عمك ؟ فأجابه : حين أعرفه أنا ، ستعرفه أنت وسيعرفه أهل البلدة جميعا

وارتاح صالح إذ علم أن ابن أخيه سيثأر له وهتف من أعماق قلبه بصوت أجش : بارك الله فيك يا ابن أخى

ومات راضيا مطمئنا

وأقبل ناظر المدرسة وتطوع بأعلان شهادته ان المرحوم كان دمث الخلق لين العريكة سهل الجانب ، وقدم ناظر الزراعة كذلك ، وكيف لا يأتى وهو أحد حكام الناحية ، ونظر الى القتيل نظرة الأسف ، الأسف على فشل المؤامرة ، وقال وهو يهز رأسه فى تحسر : لاحول ولا قوة الا بالله . كل شيء قسمة ونصيب

فغمغمت زينب : « يقتل القتيل ويمشى فى جنازته »

فصاح بابنة عمه غاضبا : ما جاء بك الى هنا ؟

فأجابت متحدية : وما شأنك أنت فى ذلك ، أيها المجرم . فانتهرها : خسئت يا فاجرة . فقالت : أنا فاجرة ؟ وهوت على وجهه بصفعة قوية

وسر الجميع لأهانة المنكل بهم ، وقال فلاح متوار بين الجمع : تسلم اليد . وقال آخر : « دقة المعلم بألف »

وهجم ناظر الزراعة على زينب فتقدم خطيبها ووقف فى طريقه وصدره الى الأمام متحفزا للانهيال عليه لكما ، وقال زيادة فى التنكيل به : لوثت يدك يا زينب .

وأراد فلاح كهل أن يلعب دور الوسيط فقال للمتنازعين : عيب والله ! أتفعلان ذلك وأنتما من الأفندية ، فماعسى يفعل الفلاحون ؟ ولكن احد الفلاحين الشبان رد عليه ولما ينس منظر الصفعة التي هوت على وجه الناظر : وهل كفر الفلاحون؟

الفلاحون أفضل الناس .

وتقدم الشيخ مصطفى الى عبد الخالق افندى يجذبه من ذراعه قائلا : هلم بناء لا داعى لهذا . وانسحب عبد الخالق افندى مع خطيبته راضى النفس بانتصاره وحمد ناظر الزراعة ربه على نجاته من موقف حرج بين جمهور كله كاره له حانق عليه . وانفض الجمهور عندما أعلن العمدة أن « الحكومة » حضرت . وشرع ملاحظ النقطة فى كتابة المحضر .

***

قال عبد الخالق افندى مشيرا الى أهمية دوره السلبى فى هذه المأساة : يبدو أن عزرائيل أعشى لا يميز بين الناس فى الظلام ، لا سيما اذا أبدلوا ثيابهم .

فقال الشيخ مصطفى : وما حاجته الى التمييز ؟ انه إن أخطأ فى الصنف لم يخطىء فى العدد ، فالخسارة ليست كبيرة .

— بل هو الرابح على ما أعتقد ، فأن هذا الفصل ليس ختام الرواية ، ولا أظن دم قتيل اليوم يذهب هدرا .

— من الواضح أن عطية أفندى هو مدبر هذا الحادث ، ولكن الذى لم اكن أعتقده ان يكون للباشا دخل مباشر فى الموضوع ، فقد كنا جالسين معه على مصطبة السراى وبوغتنا بخبر أنك أنت أصبت ، لا قدر الله ، فأذاهو لا يبدو عليه أنه فوجىء بالخبر بل تعمد أن يتظاهر بعدم الاكتراث اخفاء للسرور الذى كنت أتبينه يشع من عينيه . ثم لم يلبث أن أمر بأعداد مائدة العشاء له وللحاضرين جميعاً ، وقال المأذون مسايرة لعواطف الباشا : « الميت الرخيص يعزى فيه وقت الفراغ » فلما أن ورد الخبر الصحيح بأن القتيل لم يكن غير « صالح » كمد وجه الباشا وزايلته شهوة الطعام فلم يأكل سوى بضع لقيمات وبدهى ان المأذون تولى ازدراد نصيب الباشا فوق نصيبه .

— مما أقسى العيش فى الأرياف ، لا يستطيع المرء فيها الا أن يكون مجرما أو فريسة للمجرمين ، فلا غرو يهجرها الميسورون والمتعلمون ليعيشوا فى العاصمة

بسلام بدلا من قضاء العمر فى كفاح مستمر ضد هـذه الرجعية السائدة والغرائز البهيمية المنطلقة بلا كابح

فقالت زينب : إن هذه الحال التى وصفت هى نتيجة هروب المتعلمين من الأرياف أكثر مما هى سبب لهذا الهروب ، ولو ان الجيل الحالى من المتعلمين قبل أن يبذل شيئا من التضحية بالأقامة فى الأرياف رغم سوء أحوالها وظروف الحياة فيها لتحسنت حالتها فوجدها الجيل الناشىء صالحة للمقام فيها بل مغرية على الهجرة اليها

فقال الشيخ مصطفى ملاحظا : هذا صحيح ، على أن يكون المهاجرون الأولون الى الريف من المسالمين لينى العريكة .

أما عبد الخالق افندى فأن اقامته هنا عامل حرب لا عامل سلام

ووافق عبد الخالق افندى على صواب هذه الملاحظة ولكنه عللها قائلا : ذلك لأنى هنا وحيد بين هؤلاء الضباع الذين يفكرون ويتعاملون على النمط الذى كان مألوفا فى القرون المظلمة ، ولذلك كان مقضيا أن أتلقى الصدمة الأولى . إنى أنشد السلام على ألا يكون ثمنه التقهقر والاستخذاء ، والا فلا قيمة للسلام الذى يقتضى الناس أن يكونوا فريسة للوحوش . وكثيرا ما يكون السبيل الذى لا سبيل غيره الى استتباب السلم هو الصمود للحرب

١٦

آراء وأقوال

كان هذا المأذون قمئ الجسم ناتئ الفم قذر الملبس كريه المجلس ، وله شارب ليس بالطويل ولكنه يبدو كذلك لأن الرجل يطيل من شعر ذقنه الجزء المحاذى للشارب ، أما عيناه ففى بريقهما شئ من النشاط على خلاف جبهته التى تدل على الغباء والتى دمغ فى وسطها دمغة كى ، أراد بها أن يصور زبيبة صلاة تنطق بطول سجوده ، ولكن المختار الذى حفرها ، كان قليل الدقة فلم تجيء زبيبة صلاة بل جاءت — على غير رغبة صاحبها — تينة صلاة لم يكن المأذون من أبناء هذه البلدة بل نشأ فى القاهرة من أب حوذى وأم غسالة ، ولولا أن الأزهر وسعه لكان الى الآن يسوق الخيل ويتحدث عن أسعار عليق التبن ويشكو منافسة السيارات للعربات .

فلما ألقاه الأزهر فى هذه البلدة وأصبح مأذون الشرع فيها أخذ يحض العزاب على الزواج والمتزوجين على الطلاق ، ولكن ربحه من هذه العمليات لم يكن كافيا لأشباع نهمه فقد كانت البلدة من الفقر بحيث لا يدر الزواج والطلاق فيها دخلا وافراً ، فعمد الى كتابة الأحجبة وقراءة الأوراد ، وأخذ يحدث الجمهور عن مختلف ضروب السحر من الجفر والبازرجة والتنجيم والطوالع الفلكية وزجر الطير وعلم الأثر والكف واختلاج الأعضاء وضرب الرمل وخواص الأسماء وأسرار الحروف والتصريفات والطلاسم والسماويات . ثم انه اتفق مع اثنين من أقاربه فحضرا الى البلدة وادعى أحدهما الجنون وزعم الآخر أنه قدم خصيصا من دسوق لمعالجة ابن عمه هذا على يدى الشيخ بناء على توصية فى المنام من الشيخ ابراهيم المدفون هناك . وأخذ المأذون يقرأ القرآن ويتلو أسماء الله الحسنى على حبات المسبحة ، وراح مدعى الجنون يعلن فى ارجاء البلدة أنه شفى وارتد عاقلا ، وصدقه الجمهور فطار صيت الشيخ فى البلدة والقرى المجاورة بعد هذا الأعلان الذى بذ الأعلانات الامريكية على واسع شهرتها

وقد ربح المأذون كثيراً وأخذ يفرض على قاصديه المغفلين أتاوات عالية . لقد كان الرجل جباراً وكل ذى عاهة جبار ، وهل هناك عاهة أعظم من أن يكون المرء أزهريا . . . . ثم لايتورع عن الدجل

جمع هذا المأذون من المال مالم يجمعه مأذون قبله فقد كانت له سياسة خاصة ازاء الصعاليك ، وهى التظاهر بالتقوى والورع وسياسة أخرى ازاء الباشا هى التظاهر بالمكر وعدم التعفف عن أية رذيلة . لقد كان الباشا يحب هذا النوع من الناس لأنهم على شاكلته ولأنهم يشعرونه بصواب كونه على شاكلتهم ثم لأنه يستخدمهم ويتستر وراءهم فى قضاء مآربه وغاياته

وقد بالغ المأذون فى ارضاء الباشا وتملقه ومداهنته حتى أصبح ذلك خصلة له وسجية فيه ، وانطبعت فى باطن عقله هذه الصورة المفخمة التى صور فيها الباشا وأصبح الباشا مثله الأعلى ، فأذا تحدث هذا المأذون عن رسول الله أخذ يصفه بالصفات التى اعتاد أن يخلعها على الباشا بل كان ينحو فى كثير من الأحيان هذا النحو حين يتحدث عن الله نفسه

وكانت ضعة نفسه ناطقة صارخة تبعث الاشمئزاز والمقت الى نفوس سامعيه . ولاسيما حين يجلس فى المصطبة تجاه الباشا كما يجلس العبد متأهبا لتلبية أوامر سيده

وكانت مصطبة الباشا فى احدى الليالى تضم غير روادها الدائمين المعهودين زائرين طارئين من الصنف الأرقى الذى يثير ظهوره فى المصطبة نوعا من الذهول والفضول ، فقد أحب طبيب المستشفى المركزى أن يقوم بزيارة للباشا قبل أن تستولى نوبة السأم على سعادته فيرحل إحدى رحلاته الى مصر ، وانتهز مفتش التعاون فرصة وجود السيارة « البوكس » التى أعارها المأمور للطبيب ، فصحب الدكتور الى قصر مظهر . ورحب الباشا بهما وفى مرجوه أن يكون فى محضرهما من الايناس والتسلية ما يزيل عنه تصديع النيابة لرأسه بتحقيقها فى جناية الأمس ، وقد استطرد الى طرق هذا الموضوع وهو يقول متعجبا متسخطاً : من أجل فلاح أجرب ينتقل الضابط ووكيل النيابة وينتدب الطبيب الشرعى وتتخذ جميع الاجراءات التى كانت تتخذ لو أن القتيل بك أو باشا !

وابدى المأذون دهشته : هذه مسألة غريبة حقا . وقال العمدة يعتذر عن عمل الحكومة التى هو على أى حال جزء منها ومسئول عنها : لئن كانت الحكومة تبذل شيئاً من العناية الزائدة فأنما ذلك كى لا يطغى المجرمون فيتجرءوا ذات يوم على البكوات والباشوات .

هنا لم يتمالك المأذون نفسه من الاحتجاج : يتجرءون على الباشوات ؟

واشتد غيظ المفتش وذكر تصدى العمدة له حين جاء يدعو الى تأليف الجمعية التعاونية فعزم على التنكيل به وبالمأذون ، فقال : النفس البشرية يا حضرة المأذون وياحضرة العمدة هى النفس البشرية . وقد تحل هذه النفس فى جسد فلاح فقير أومثر كبير أو وزير خطير ولكن ذلك لا يغير من قيمتها من حيث هى نفس بشرية .

وعلم الباشا أن هذا التأنيب موجه اليه ضمناً ، فمن الواجب عليه أن يدفعه وأن يفند هذه الآراء التى لو تسربت الى أفهام الفلاحين لأصبحت مع الزمن خطرا على مركزه الاجتماعى والمالى ، فقال وهو يصطنع التؤدة التى تناسب الارستقراطيين الواثقين من استعلاء مراكزهم : أعتقد أن فى هذا القول شيئا من الغلو ، فالفلاح غير السيد من سادة البلاد كما أن الجندى لا يقرن بقائد الجيش .

ولمس المفتش فى هذه المقارنة نوعاً من المغالطة ، فالقائد يقوم للجيش بخدمة معينة فأذا فقد اختل الجيش أما سادة البلاد فلا يقومون للبلاد بخدمة معينة لأن السيادة ليست خدمة وفى استطاعة فلاحى قصر مظهر أن يظلوا فلاحين من غير أن يبقى فى البلدة مظهر باشا

وصمت الباشا لحظة ثم أبدى على وجهه ملامح الأسى والتحسر ، وقال مستدركا : على أن الفلاحين فسدوا هذه الأيام وتعلموا أن يتحضروا ، حتى غدا منهم من يلبس الحذاء

فهز المأذون رأسه مستنكراً محوقلا

وتنهد الباشا وقال : إه . رحم الله الأيام السالفة ، أيام كنا نصدر أمرنا للفلاح فينبطح أرضاً ليتلقى على قدميه ضربات العصا

فقال المأذون معقباً : فى تلك الأيام كانت الأرض تغـل ضعف المحصول الذى نجنيه منها الآن ، ولم يكن القطن يصاب بالدودة

فقال المفتش متهكما : انى أذكر ياحضرة المأذون أن وزارة الزراعة كانت أعلنت أنها تمنح جائزة مالية عظيمة لمن يكتشف طريقة لأبادة الدودة ، فاذا كنت قد تحققت أن العودة الى ضرب الفلاحين تبيدها فعليك أن تقدم طلبا لنيل المكافأة

وارتبك المأذون ولـكن الباشا انتشله من هذا الارتباك إذ قال يعدد الحوادث الدالة على صواب نظرة مأذونه الى الفلاحين : الواقع أن الفلاحين قد فسـدت أخلاقهم كما فسدوا من حيث الدأب على العمل ، وقد ازدادت الجرائم فى هذه السنة على صورة لافتة للنظر ، فها كم ثلاثة حوادث قتل فى مركز واحد فى شهر واحـد ، حادث مقتل الخواجة كرياكو ناظر زراعة الأروام ، وحادث قتل ذلك الفلاح لابن خاله بسبب خلافهما على ماء الرى ، ثم جريمة الأمس . أجل . لقد طغت روح الشر على الفلاحين فازدادت أخلاقهم سوءا على سوء ، فأذا لم يأخذوا بالشدة عم الفساد

فاعتدل المفتش فى جلسته وقال : الحقيقة ياباشا ان الأزمة الأخيرة جعلت الفلاحين فى حالة مستحيلة ، فهم أنصاف عراة أنصاف جياع ، بل أنصاف أحياء ، فالأمراض تفتك بهم . ولا ريب أن هذه المجاعة التى نزلت بهم هى علة ازدياد الجرائم فى السنين الأخيرة ، فأما حادث التقاتل بسبب ماء الرى فهو صورة من أقسى صـور النزاع لأجل الحياة ، فان المزارع الذى يفوته أن يروى أرضه فى نوبتها مرة أو مرتين قد يخسر بسبب ذلك أردبا أو نصف أردب فى كل فدان ؟ وهذا القدر هو فى الأغلب كل ما ينتظره من الربح بعد خصم نفقات الزراعة ووفاء إيجار الأرض . وينبغى أن نلاحظ أن ايجار الأطيان فى مصر لا يقل عن ستة فى المائه من ثمنها المرتفع هنا ، فى حين هو فى أوروبا وأمريـكا لا يزيد عن ثلاثة فى المائة من ثمنها المنخفض هناك . فالظروف التى يعيش فيها الفلاح المصرى عسيرة أشد العسر ، ولذا فأنه ان تهاون فى حقه فى ماء الرى ولو مرة واحدة ضاعت عليه ثمرة عمله

المضنى طوال نصف العام ، وطمع فيه جيرانه طوال العمر . لاشك ان تنازع الحياة فى الريف أقسى منه فى المدن ، وهذا مايضاعف واجب الحكومة ازاء أبناء الأرياف فيما يختص بأنصافهم وتوفير أسباب العدل بينهم

فقال الباشا : لامماراة فى صعوبة الأحوال عندنا ، ولكن من أسباب صعوبتها أن فى الفلاحين أناسا مجرمين بطبيعتهم ، والا فما قولك فى الجناية التى نشرت الصحف خبرها منذ أسبوعين ، رجل يقتل المحسن اليه من أجل مائة وخمسين قرشاً! حقيقة « اتق شر من أحسنت اليه »

واعتقد الباشا أنه صرع مناقشه بقوة حجته فأذا بالآخر يصرعه ، اذ قال : ان قتل المرء لمن يحسن اليه جريمة مضاعفة ، وربما كنا نحن نقترف هذه الجريمة كل يوم من حيث لا ندرى ، فأن الفلاحين يحسنون الينا ويعطوننا طعامنا ومع ذلك فنحن نعاملهم معاملة تكاد تكون قتلا

وتدخل الدكتور فى الموضوع منتصرا للمفتش : ليس تعليل الحادث الذى يذكره سعادة الباشا فى منتهى الصعوبة ، فقد أصبح الفلاح لطول العهد باستغلاله وظلمه لا يعرف غير شريعة القوة فاذا ساق القدر اليه شخصا أضعف منه يفتك به ويلتهم أمواله ، وانما يتحسن خلق الفلاح متى قل استغلالنا له

فقال الباشا : ان التعليل الذى ساقه الدكتور لاينفى عظيم استعداد الفلاح للأجرام والسرقة . ونحن نعانى الأمرين من ذلك ، فهو يأتى بحماره وجاموسته فيطلقهما على الحقل فيذرانه بلقعا ، فيخسر الفلاح والمالك جنيهاً فى حين لاتنتفع بهائمه من ذلك ، الا ببضعة قروش هى قيمة النباتات باعتبارها حشيشاً

ونحن ننفق نسبة كبيرة من دخلنا على حراسة المحصولات وتعمد زراعة المحصولات التى يقل طمع الفلاح فيها ، فنزرع القمح الهندى بدلا من البلدى لأن القمح البلدى يسهل شيه وأكله فى الحقل أو فى المنزل دون تعب ، وكذلك نقلل من عدد الأصناف المزروعة فنزرع مساحة كبيرة حلبة فقط أو فولا

فقط بدلا من زراعة بعضها حلبة وبعضها فولا ، وذلك حتى لا تتعدد مرات السرقة بتعدد المحصولات واختلاف أوقات نضجها ، بل إنا لنضطر فى بعض الأحيان الى حصد المحاصيل قبل تمام نضجها تحاشيا لطول تعريضها للسرقة

وهؤلاء الفلاحون سواء لديهم من يسىء إليهم ومن يحسن . لقد شيدت لهم مسجدا مبنياً بالحجر لا مثيل له فى جميع بلدان المركز ، وذلك كى يتقوا الله فيمتنعوا عن سرقة المحصولات ، ولكن فائدته كانت محدودة فأن قلوبهم غير عامرة بالايمان . ليس فى هذه البلدة شخص لم يأكل من مالى إما مزارعا فى أرضى أو أجيراً عندى أو شريكا لى فى تربية العجول ، ومع ذلك فهم جميعاً يسرقوننى ، وهذا هو مبلغ اعترافهم بالجميل

فقال المفتش : ان الفلاح يحس احساس الشاعر الذى قال

اقتلونى ومالكا * واقتلوا مالكا معى

فهو يسرق لقلة ثقته بالمالك ، وقلة الثقة فى هذه المعاملات هى أصل البلاء وأس الاخفاق . وانها لحرب ضروس تصيب شظاياها الغالب والمغلوب وتصيب الاقتصاد السياسى للدولة كله

فقال الباشا مستغلا هذه الحقيقة لتدعيم باطله : وهذا مايجعل من الضرورى كبت ما عندهم من الأهواء الشريرة بالحزم والقسوة

وتدخل الطبيب فى الفرصة المناسبة لأبداء رأيه فقال : أعتقد خلاف ذلك ، فالذى يلزمهم هو العدل لا القسوة ، فالظلم هو العلة الأساسية لكل ما هم فيه ، ومادامت العلة الأساسية باقية فمن العبث بل من الخطر أن نتركها ونلجأ الى القوانين الصارمة والعقوبات القاسية

ونحن الأطباء قد نجد مريضاً التهبت عيناه نتيجة اصابته بالزهرى فنبادر الى معالجة الزهرى لأنه العلة الأساسية ، ولو أننا كنا نكتفى بمعالجة العينين وحدهما لماكان الأمر ينتهى بغير العمى . والعلة الأساسية هنا هى أن الفلاح بائس مظلوم فيجب أن نرد اليه حقوقه

ـ الفلاح لا يشعر أن له حقوقا مهضومة ، فهو قانع بعيشته ، ولئن علمتموه ان لا يقنع بها فأنكم تكونون أنتم الذين تسببون له الألم والشقاء . انكم عاجزون عن أمداده بما تزعمون أنه ينقصه ، ولذلك لا أرى ثمت حاجة الى تفتيح عينيه لرؤية ذلك النقص المزعوم

ـ الألم هو المنبه للخطر ، فلو أن الذى تعرضت يده للنار لم يشعر بالألم من جراء ذلك لانتهى الأمر باحتراق يده جملة . ومن الخطأ أن نبقى هذه الأحوال البشعة على ما هى عليه اعتمادا على أن عينى الفلاح مغلقتان . ان الفلاح يرى ويميز كثيرا ولكنه يغض طرفه أحيانا ويكظم غيظه ثم يثأر لنفسه عند سنوح الفرصة ممن يستحق وممن لا يستحق ، والجناية فى ذلك واقعة على المجتمع كله

ـ إنه لا يرى ذلك بعينيه ، ولم يطلب اليكم أن تروه الأشياء بعيونكم

ـ عندما يكون المرء مصابا بالبلهارسيا والانكلستوما والبلاجرا والرمد الصديدى ، فلست أدرى كيف لا يرى ذلك . من الغفلة والعبث أن نتجاهل آلامه الجسدية فضلا عن آلامه النفسية

ـ لم يمنعكم أحد من تحسين صحته إذا شئتم ، وأصحاب الأطيان أول من يسرهم تحسن صحة فلاحيهم

ـ لاشك فى سرورهم ، ولكن الأنسان لا يصح له انتظار الحصول على السرور بلا ثمن . فمن المستحيل أن تتحسن الحالة الصحية فى الريف الى حد مناسب من دون أن نحسن حالة المساكن

ـ ينبغى قبل أن نلتقى الكلام على عواهنه أن نلاحظ ان الحالة الاقتصادية سيئة لا تسمح بأعطاء الفلاحين أكثر مما يأخذون ، فأذا حضضناهم على زيادة ما يحتاجون اليه لم يبق أمامهم غير السرقة ، بل السرقة أصبحت الآن منتشرة بينهم فعلا بسبب ذلك الشاى الأسود المر المذاق الذى يشربونه ، فأن الواحد منهم يشتغل فى اليوم بقرشين أو ثلاثة فينفق نصفها على الشاى والتبغ

ــ هناك فى كل طبقة أناس ينفقون معظم دخلهم على الكماليات ، بل هنالك من ينفقون أكثر من دخلهم ، وهؤلاء هم الذين كانوا القدوة السيئة للفلاحين .

ــ لست أتحدث عن التبذير ، فكل امرىء حر فى اتفاق أمواله كيفما شاء ، ولكنى أقول إن الفلاح الفقير حين ينفق معظم دخله على المكيفات ينزلق بسهولة الى وهدة الأجرام فيعمد الى السرقة من أصحاب الأراضى

كان الباشا فى بادىء الأمر قد سره أن يناقش هذا الموضوع الذى يعرف من أطرافه أكثر مما يعرف فى أى موضوع آخره ، وقد سره أن يتحدث لا باعتباره فردا عظيما فحسب بل باعتباره ممثلا لطبقة السادة كلها ، وقد سره كذلك ولا ريب أن أتيحت له هذه الفرصة ليبهر أبناء بلدته بواسع معارفه وقوة حجته وليلقى عليهم درسا بالآراء التى ينبغى أن تكون آراءهم . وكان الحديث فى أول أمره لا يعدو أن يكون تسلية ورياضة ذهنية ، ولكنه تطور نحو الاحتدام من جهته فلم يتوان المفتش عن الاحتدام هو الآخر ، وقال :

إن الانزلاق من التبذير إلى السرقة ، ليس أمراً مقصورا على الفلاحين فالغنى الذى ينفق أكثر من دخله قد ينزلق أيضا الى السرقة فيسرق أرباح فلاحيه . هذا وليس من السهل دائما أن نعين من هو الذى يسرق ومن هو الذى يسرق ، غير أنى شاهدت فى احدى القرى التى أمر بها فى طوافى حادثة استرعت انتباهى ، فأن أحد كبار الملاك التق فى البيدر بأحد زراعه فدعاه الى الذهاب الى المكتب ليحاسبه الكاتب على نفقات الحرث وثمن البزور والسماد و «خلافه» . ولم يفهم الفلاح معنى كلمة «خلافه» فسأل عنها خفير البيدر فأجابه هذا انها تعنى مرتبات كاتب الزراعة وطباخ المنزل وسائق السيارة وغير ذلك من لوازم الترف والفخفخة ، وأن تلك الكلمة هى وسيلتهم لابتزاز أموال المستأجرين ، وأنه ما من وسيلة لدفع هذا الظلم الا أن يسرق الفلاح بضع « زكائب » من محصوله على أن يسمح للخفير فى مقابل غضه النظر عن ذلك أن يسرق لنفسه زكيبة واحدة من المحصول، ففعل الفلاح ذلك .

وعند ما ذهب فى اليوم التالى الى كاتب الزراعة ، حاسبه هذا على نفقات الحرث والخفارة وثمن السماد والتقاوى ، ولاحظ الفلاح أنه لم يحاسبه على «خلافه» فلفت نظره الى ذلك ، فأفهمه الكاتب أن هذه الكلمة لا تعنى شيئا ، وهنا ذكر الفلاح للكاتب حقيقة ما وقع وطلب اليه أن يرسل معه مندوبا لاستلام نصيب الدائرة من الغلال المسروقة ، فكان

ويتضح من هذا المثل أن الفلاح انما يسرق اذا أحس أنه يسرق ، وأنه يرتد أمينا عند يقتنع بقيام العدالة ، ومثل ذلك قاطعو التذاكر بترام القاهرة فقد كانوا الى ما قبل سنة ١٩١٩ كثيراً ما يأخذون أجر الركوب من الراكب دون أن يقدموا له التذكرة ، وذلك إذا علموا منه أنه راكب الى مسافة قصيرة لا ينتظر مجيء المفتش خلالها ، وكان بعض الراكبين يعاونون قاطعى التذاكر فى خطتهم هذه ، شعوراً منهم أن العمال مغبونون وأن تلك الشركة الاجنبية تسرق العمال والجمهور فى آن واحد وتبتز منهم مبالغ طائلة لا مسوغ لابتزازها ، فلما كانت الثورة وأضرب عمال الترام لأسباب سياسية واقتصادية وأرغمت الشركة على زيادة أجورهم ، حدث انقلاب أساسى فى مسلك قاطعى التذاكر قاطبة فأصبحوا يتنزهون عن الاختلاس الذى كانوا يباشرونه عند ما كانوا يشعرون أنهم لا ينالون نصيبا يتناسب مع كدهم ومع ربح أصحاب العمل

ويتضح قياسا على ذلك أن الفلاح إنما يندفع الى السرقة بتأثير سوء معاملة المالك له ، ويعتذر المالك عن سوء معاملته للفلاح بأن الفلاح يسرقه ، وقد عبر الفلاحون عن ذلك بالمثل السائر « لم تخطفين يا حدأة ؟ أجابت : من جوعى . ومم جوعك يا حدأة ؟ فأجابت : من خطفى »

هذا وقد لاحظت — وأرجو أن لا يؤاخذنى الباشا — أن السرقات التى يرتكبها الفلاحون، أكثر تفشيا فى القرى التى تسيطر عليها أسرة واحدة أو شركة زراعية قوية ، أجنبية بداهة ، ففى هذه الجهات بصفة خاصة يحرم الفلاح من

الفوائد الصغيرة التى قد يستطيع إفادتها من تنافس الملاك ، وفى هذه الجهات يشتغل الفلاح طوال عامه وهو قلق غير مطمئن الى نيل شيء من حقوقه

ورد الباشا محنقاً بلهجة لا تخلو من معانى التهديد : هذه آراء مخطرة لا تجوز اذاعتها . إننا قد نحتمل أن يسرقنا الفلاحون ولكن الذى لا نحتمله ولا نتسامح فيه ابداً هو أن يعتقد الفلاحون أن من حقهم أن يسرقوا . هذه آراء مخطرة تتنافى مع الدين والتقاليد والقانون . وهى تكون أشد خطورة عندما يكون مروجها موظفا حكوميا . وخطر هذه الآراء واقع على الفلاحين أيضا لا على أصحاب الأرض وحدهم . والنظام القائم هو النظام الطبعى الذى خلقه الله « ولا يظلم ربك أحدا »

وسارع المفتش الى دحض كلام الباشا ، فقال : لقد خلق الله جميع الأنظمة على السواء ، ولكننا بلينا بسوء النظام لأن السيئين منا لا يجدون من يقف فى سبيل انطلاق غرائزهم الجامحة واطماعهم النهمة . وليس الله هو الذى تقع عليه تبعة أخطائنا بل تقع علينا نحن ونحن المطالبون بأصلاحها . أما النظام الطبعى فهو أن لا يدع المرء أحوال بلاده على ماهى عليه من انحطاط بل أن يرقيها ويحسنها ، وأن ينظمها بحيث تزدهر القوى الجبارة والملكات المتوقدة الكامنة فى نفوس الملايين من اخوانه أبناء الوطن

إن فى مصر بضعة عشر مليونا من الفلاحين ليسوا بأقل من غيرهم من البشر ذكاء أو قدرة على العمل أو استعدادا للنهوض ، ولكن الجهل والعبودية والرجعية طوحت بهم الى مركز الخدم لمن كان ينبغى أن يكونوا أنداداً لهم . إن هذه الملايين من أبناء مصر تريد ان تسير فى سبيل المدنية والحضارة لتلحق من سبقها وتسبق من لحقها ، لكى تقوم بنصيبها من تشييد صرح الحضارة البشرية ورفع منارة العلم الذى ينير لبنى الانسان قاطبة

واذا كان الفلاح المصرى المتوقد الذهن يستطيع فى بضعة أسابيع أن يصبح سائقا ماهرا للسيارات والجرارات فلا ريب أنه يستطيع فى عدة سنين أن يصبح عالما مجددا أو مخترعا عظيما فيزيد ثروة العالم فى العلوم والمخترعات ، فعلينا أن

لا نعوق الفلاح عن العمل فى سبيل نفسه وفى سبيل وطنه وفى سبيل الانسانية جمعاء ، وعلينا أن نفسح له المجال ، فقد آن له أن يعمل ، وإنه ليعتزم أن يعمل

أراد الباشا أن يعلن ضجره من هذا الحديث ، فقال : ما زالت أسعار القطن آخذة فى الهبوط . لقد غدت زراعة الذرة أكثر منه ادراراً للربح

فقال المفتش : أجل ، لقد أصبح ثمن الكيلة من الأذرة الصيفية مماثلا لثمن الكيلة من القمح ، ومع ذلك فأن الفلاح يفضل الذرة لأنها أكثر من القمح إشعاراً بالشبع . مسكين هذا الفلاح ! تصور أنه لا غنى له عن العمل خمسة أيام كاملة كيما يحصل على ثمن كيلة واحدة من الأذرة لا تكاد تكفى لأطعام عائلته هذه الأيام الخمسة

والتفت الباشا الى المأذون وقال له : متى ترد باقى حصر الجامع ؟ فأجابه : أظن أنها لن تتأخر أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة . أبقاك الله عونا للخير

ونظر الطبيب فى ساعته ، ثم قال للمفتش : ينبغى أن ننصرف الآن فأن حضرة المأمور فى حاجة الى سيارته ، ثم نهض واستأذن فى الانصراف ، وصافح الباشا هو وزميله ثم حييا باقى الموجودين جملة وانصرفا مسرعين

وقال العمدة : لا شك أن هذا المفتش مغفل

فقال المأذون : إنه يتبع قاعدة « خالف تعرف » « يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم »

وقال الباشا : إنه يثرثر بهذا الهراء ليوهمنا أنه تعلم أمورا لا نعرفها نحن

فقال المأذون معلقا : وما هى معلوماته بالقياس الى معلومات سعادتك ؟ انها ليست سوى قطرة من بحر

واستطرد الباشا : إن آراءه لا تهمنى ، فمها ثرثر هو وأمثاله فلن يصبح الحال غير الحال ، فنحن باقون كما نحن . غاية الأمر أنه صدع رأسى وعكر مزاجى ، لا شرح الله له صدره ولا أصلح له مزاجه

١٧

أصبح العيش لا يطاق

أقسم عبد القوى على الانتقام لعمه وأقسم مجاهد على معاونته فى ذلك وجلسا فى منزل اولهما يعددان ما أنزل هذا الناظر الطاغية بهما وبأبناء البلدة ، وقال عبد القوى :

ـ انه مازال على أية حال ، أعز من أن يرثى له أمثالنا ، وما زال لديه من المال أكثر كثيراً مما نحلم نحن جميعا أن نحرز طيلة حياتنا . ومهما بلغ أحد هؤلاء من الحاجة فأنه لن يهبط الى مستوانا ، فنحن محكوم علينا بالذلة والمسكنة من قبل أن نكون فى بطون أمهاتنا . وأولادنا أيضاً سيسلمون للشقاء والتعاسة بحكم مولدهم من أصلابنا ، فيسامون الخسف ويحقرون ويهانون دون أن يجدوا بين الناس من يرأف بهم أو يستمع لهم .

تصور أن هذا الناظر الفاجر قد جردنى من كل ما أملك ، من ثروتى الضئيلة التى هى عصارة حياتى وحياة طفلى ! ألا إن من جرد امرءا من ثروته التى أنفق فى اكتسابها حياته فكأنما قد قتله . واذن ، فسأثأر منه لنفسى أيضا وأخرب بيته كما خرب بيتى

ـ لهذا أول مقتضيات الرجولة . يريد هذا المسخ أن يبرهن لسيده على إخلاصه فلا يفعل ذلك عن طريق العناية بالزراعة والأجادة فى استغلال الأرض ، بل عن طريق القسوة علينا والتنكيل بنا وأذاقتنا مختلف صنوف البؤس والهوان ، دون أن يبالى فى سبيل ملقه المرذول وولائه الكاذب لسيده أن يخرب بيوت المئات والألوف من أمثالنا

ـ لقد أصبح العيش لا يطاق ولا يستحق أن يتحمل الأنسان هذه المتاعب من أجله . فلنضرب الضربة القاضية ، فأما انتهينا من مظالمه بسلام فنرتاح ، أو يقبض

علينا بعد أداء الواجب فنكون قد أرحنا أهلنا وعشيرتنا . ومن لم يكن قادراً على أن ينتفع بحياته فليجعل من حياته نفعا للآخرين

اننا نظل نشقى فى خدمة صاحب الأرض ، نحرث ونزرع ونطهر المصارف والقنوات ونقوم بجميع أعمال الزراعة ، حتى اذا جاء أوان الحصد كان الحصيد له ، فاذا ارتفع ثمن القطن تحول الثمن المرتفع الى خزانته . واذا حلت أزمة كان علينا نحن أن نتحمل نتائجها ، أو هبطت الأثمان اعتبرنا نحن المسؤولين عن هبوطها والطالبين بتعويض صاحب الأرض عما لحقه من جراء هذا الهبوط

وليست مصيبتنا مقصورة على ذلك ، فأن مياه النيل ما تلبث أن ترتفع حتى يسخرنا لقوم فى بناء الجسور لحماية اطيان صاحب الأرض ، واذا زحفت أسراب الجراد ألزمونا المبيت فى الحقول لأجلائه عن مزروعات صاحب الأرض ، واذا ظهرت الدودة جمع البوليس والهجانة أولادنا وبناتنا لالتقاطها من أقطان صاحب الأرض ، واذا تطلبوا مجندين أخذوهم منا ، فى حين يفتدى كل من السادة نفسه بعشرين جنيها ، وما عشرون جنيها بالنسبة لمن فى مثل ثرواتهم الا كعشرين مليما بالنسبة لأمثالنا

نمشى منذ أن ندرج على المشى وراء الحمير لنقل السماد ، ونظل نعمل ونكد ونكدح ، وتغزونا الأمراض واحداً فوق آخر فلا نجد القوة على مكافحتها ومعالجة انفسنا منها حتى لتسرع الينا الشيخوخة قبل الأوان ، ومع ذلك فما ننقطع عن العمل حتى يتولانا عزرائيل برحمته ، وانها — علم الله — لرحمة ، فليس لنا سن نتقاعد فيها مكتفين بالرزق ولا أمل فى ثراء مقبل يرفه عنا بعض هذا الشقاء ، فألام هذا البؤس وما هى الغاية من هذه الأشغال الشاقة المؤبدة ؟ أهى أن يضارب الباشا فى البورصة وأن يبعثر البك الصغير ما ينتجه كدنا الطويل على لهوه ومجونه ؟ هل يشقى الألوف من أبناء هذه البلدة ليلهو فرد أو أفراد فى الحانات ودور الفسق والميسر ؟ هل حرمت علينا الأموال التى نجمعها بسفك عصارة حيويتنا ولم تبح الا للغانيات الأجنبيات ولأصحاب الحانات الأجانب وأصحاب دور الميسر من الأجانب ؟

هو يبعثر الجنيهات هناك بعثرة ونحن لا نكاد نراها هنا بأعيننا ! يعطى ندل المقهى بقشيشا لا نطمع نحن فى الحصول على مثله أجراً لعملنا المضنى

وما هى متعتنا فى الحياة ؟ هل الحياة أن نكد وننام ونأكل ونتناسل ؟ الحمير أيضا نكد وتنام وتأكل وتتناسل . بل الحمير أسعد حالا منا ، فهى تشتغل وهى واثقة أنها ستحصل على طعامها أما نحن فنشتغل ونحن غير مطمئنين الى نيل أجرنا غير واثقين أننا سنجد قوتا نطوى عليه أحشاءنا . والجاموس أيضا يدر اللبن وهو مطمئن الى الحصول على طعامه ، أما نحن فنشتغل، أطعمونا أو اخذوا ما فى منازلنا من الطعام . فلم الانتظار ؟ للموت العاجل أقل شناعة من الموت البطىء . فلنضرب ضربتنا فنحصل على الراحة فوق ظهر الأرض أو فى باطنها

نظل نشقى ونكد من أجل صاحب الارض ، وصاحب الارض لا يفكر فى انصافنا . «جددى يا خائبة للغائبة» . وها نحن بعد اشتغالنا فى هذه الدائرة زهاء عشرين عاما مازال كيوم بدأنا بل نحن فى شر مما كنا . وها هى البقرة التى اشتريتها بما أخذه ابنى من محلج القطن أجراً على عمله المضنى خمس سنوات من قبل الفجر الى ما بعد العشاء ، ها هى قد استولى عليها هذا الناظر الطاغية وفاء للدين الذى حملنا إياه ظلما وعدوانا . أواه ، كلما تصورت أنى بعت طفلى لأضمن موردا للقوت وأنى اسلمته للعبودية والذل خمس سنوات شحب فيها لونه وغارت عيناه وانطبعت على وجهه سمات البله وارتسمت على محياه علائم الألم ، كلما فكرت فى ذلك ثم رأيت أن ثمن ذلك كله قد جردنى منه هذا الناظر اللعين ، كأنما كنت أذبح ابنى بيدى ليرتوى هو بدمه ، كلما جال هذا بخاطرى علمت أنى مزهق روحه لامحالة . لقد حرم الأطفال غذاءهم بمصادرة هذه البقرة وحرم البيت مورده الوحيد الذى كان يستقى منه ، وإن دمه لأقل ما أقبله ثمنا لها

لو أنك رأيت منظر ابنى حين يصل الى المحلج قبيل الفجر ، بعد أن يقطع هذه المسافة الكبيرة سيرا على قدميه العاريتين ، فيظل يعمل ست عشرة ساعة وسط ذلك الغبار الذى يعمى الأبصار ويضغط الصدور ، وذلك الدوى المزعج الذى يصم

الآذان ويصدع الرؤوس ، ورئيس العمال يتخطر فى الردهة بين الآلات والسوط بيده ، والأطفال مختبلون فى حركة سريعة لاتنقطع ووجل مستمر يخشون أن يلهب السوط ظهورهم ، لا يستريحون الا حين يتناول أحدهم خبزه على عجل . . .

ـ وكل ذلك من أجل قرشين ! تصور أن مظهر باشا أنفق ثلاثة آلاف جنيه على تزويج ابنه ! كيف يكون ذلك مستطاعا فى حين أن يومية انفلاح قرشان أو ثلاثةويومية طفله قرش واحد فى الحقل أو قرشان فى تلك المحالج المرعبة ؟

ـ بل قل كيف يكون ذلك مستطاعاً لو لم يكن أجر الفلاح بخساً بهذا القدر . إنما تنشأ الزيادة وافيض عند أحدهم من النقص والحرمان عند ألف منا

١٨

البطش عند المقدرة

التقى عبد القوى ومجاهد فى الطريق بالشيخ مصطفى ، وكانا يعرفان أنه يود مثلهما أن تتبدل هذه الحال التى يئن منهاالجميع . ودار الحديث عن الظلم وعن اباء الظلم والانتقام ، والشيخ مصطفى يفسر لهما مايريدان مع التزام الحذر على طريقته ومألوف عادته

وسأل عبد اقوى : لقدسمعت ذات مرةجملة لم أفهمها ، فما معنى «العفو عند المقدرة ؟ »

ـ معنى هذا أن الانسان اذا تمكن من البطش بعدوه فأولى له أن يعفو عنه ويدعه وشأنه

ـ واذا تمكن منه عدوه بعد ذلك وقضى عليه ؟

ـ يكون لا حق له فى ذلك

ـ وما جدوى الحق هنا ؟ أليس لكل امرىء الحق فى أن يغلب وينتصر ؟

ـ اذا كان الأمر كذلك لم يعد فرق بين انسان وحيوان

ـ وما هو الفرق ؟

ـ الفرق أن الوحوش تفتك بكل ما استضعفت وتغتصب كل ما تستطيع اغتصابه

ـ ماأرى الوحوش تختص بهذا دون الناس ، ففي الناس أيضاً من يغتصبون كل ما وصلت اليه أيديهم ، ومن هؤلاء كثيرون من ذوى الثروة وأصحاب السلطان ممن يسيرن نظام العالم ، أما نحن فلسنا الا عبيدا نسير حيث يريدوننا على السير

ـ الوحوش لاتعرف النظام ولا تفرق بين مقام ومقام

فقال مجاهد : مسكينة . ليس عندها بكوات وباشوات . اذا أرادت فنحن نتنازل لها عن باشا بلدتنا والبك ابنه . ثم سلم على الشيخ وجر صديقه من ذراعه ، وقال له : اياك والثرثرة فأنها قد تؤدى بصاحبها الى حبل المشنقة . ما هذا الهراء الذى تهرف به : « العفو عند المقدرة » . لقد لبثنا فى الذل والعبودية الى الآن بسبب هذا التفكير السقيم . لقد ولى الزمن الذى كان يقال فيه هذا والآن فليكن شعارنا : « البطش عند المقدرة »

١٩

من الاقوال الى الافعال

كمن عبد القوى ومجاهد فى حقل أذرة على طريق كانا يعرفان أن ناظر الزراعة سيجتازه للقاء امرأة من فلاحات الضيعة المجاورة ، مع التفتيش ـ بصفة ثانوية ـ على خفراء الزراعة

كانا قد اختارا لتنفيذ قضائهما ليلة حالكة الظلام من أوليات ليالى الشهر القمرى . وكان عبد القوى منذ قتل عمه يشعر بغصة الموتور فلا يشفى غليله الا دم المعتدى . كانت نار البغضاء والانتقام تتأجج فى صدره ، وقد وجد له شريكا متطوعا لا يطالب بثأر ولكنه لا يقل عن أصحاب الثأر تحرقا الى معاقبة الظالم

كان عليهما أن يظلا متربصين للوحش فى هدوء دون ان يشعلا لفافة أو يلفتا اليهما أنظار المارة القلائل الذين يظهر واحد منهم بين حين وحين

وقال عبد القوى بصوت خافت أجش :

آن الأوان أن نرتاح ونريح الخلق من هذا الشر وهذا الفساد . آن الأوان أن نضع حدا لهذا العبث بمصالح الناس والاستخفاف بكرامة البشر . آن الأوان أن نعلن رفضنا تضحيتنا جميعا على مذبح أنانية فرد أو بضعة أفراد . لقد خدعوا حين رأوا أفواهنا مخرسة فتمادوا فى غيهم ، فالآن فليتكلم الرصاص . أجل ، فليتكلم الرصاص فأنه أبين منطقا وأبلغ تعبيرا . إن كلامه لينفذ على إيجازه فى صميم القلب فيحدث تأثيرا لا يحول ولا يزول . من الحمق أن نخاطب الناس بغير اللسان الذى يفهمونه ، فهنالك قوم يفهمون اللسان العربى المبين ، وهنالك آخرون لا يفهمون الا ألسنة النار الخاطفة .

أجل فلتندلع ألسنة النيران وليتطهر هذا البلد من قذارة هذه الطفيليات التى لا تعيش الا على حساب الغير ولا تنمو وتتضخم الا بامتصاص دماء الألوف من بنى الانسان

فلتكن هذه الليلة نهاية عهد الطغيان ، وليشرق بعدها عهد فيه شىء من الراحة والاطمئنان . الليلة آخذ بثأر عمى فيستريح فى قبره وتستريح نفسى بين جنبى . سأزيل بطلقة واحدة عار الخنوع عن نفسى وعن أهلى وعشيرتى وأبناء بلدى اجمعين

فقال مجاهد : يسرنى أنى رفيقك فى هذا العمل . إنك تثأر لعمك أما أنا فأثأر للبشر كافة ، أثأر لهؤلاء الألوف من المساكين الذين أجاعهم هـذا الوغد وأذلهم وكاد يمسخهم قردة .

وبدا شبح الناظر وهو قادم يتلفت فى حذر وبندقيته على كتفه ، فغاض الدم من وجه عبد القوى وقال بصوت متحشرج : ها هو قادم

وصعد الدم الى وجه مجاهد وقال هامسا : تأهب للعمل . حركة إصبع وينتهى الأمر . إقدام لحظة واحـدة ينهى تردد دهر طويل ، وشجـاعة دقيقـة تنقـذ من ذل سنين . مجهود بسيط يقف آلاما هائلة . موت نخاس واحد ينقذ حياة الألوف ممن حكم عليهم بالرق والعبودية

وصوب الرفيقان بندقيتيهما الى القلب واطلقا من فوهاتها المزدوجة أربع طلقات فسقط الناظر يتخبط فى الدماء ـ الدماء التى امتصها من الفلاحين . لقد قتـله فرط نذالته . لقد قتل نفسه

٢٠

الحاكم الملوث

انتشر الخبر فى البلدة فتهافت الفلاحون على مكان الجناية يتحققون ممـا يسمونه « العـدل الالهى » ويزيدون أنفسهم اطمئنانا الى زوال هذا الكابوس زوالا لا رجعة بعده . وكان عددهم كثيرا الى حد لا يسهل معه دائما تمييز من يقول شيئا حـين يقوله ، فكانت أقوالهم تترى صريحة لا تحفظ فيها ، فمن قائل :

ـ كان لا بد له من هذه النهاية

ـ على الباغى تدور الدوائر

ـ اليس هو الذى أرسل خفير الزراعة من عامين الى شحاتة يغريه بسرقة المزروعات ليلا فلما ذهب الى الحقل المتفق عليه اذا بهذا الناظر قد رصد له الخفـير فقتله الخفير زاعما أنه كان مضطرا الى ذلك لأن شحاتة كان مسلحا ؟ وهل يترك الله ثأر أحد ؟

ـ كان يسلط عماله على الخلق يستعبدونهم ، فتركوا عماله وانتقموا منه هو مباشرة ، « ومن يعرف الله فلا حاجة به الى الأولياء »

ـ من يوم أن وضع قدمه فى هـذه الدائرة وهي نازلة تهوى الى الحضيـض .

وقد ظل يضطهدنا ويوقع الحجز على ممتلكاتنا ومواشينا من غير أن يأمره الباشا بذلك ؟

ـ يا لك من مسكين أتتوهم أن الباشا لم يكن يأمره بذلك ؟

ـ لقد أنزلوا بنا الفقر بسياستهم المذلة حتى صرنا نشتهى المش ، ولكنا عن الشكوى والاحتجاج عاجزون ، فنحن اشبه بالأطفال فى السنة الأولى من عمرهم يبصرون ما يدور حولهم ويفهمون ما يراد منهم ولكنهم مع ذلك لا يبينون

ـ الأطفال أقدر منا على الافصاح عن مشاعرهم فهم يعبرون عما يخالج نفوسهم بالبكاء وبالاشارة وبتقطيب الوجه أو بسط أساريره ، أما نحن فلا يكفينا عدم الافصاح عما يعتورنا من الآلام بل نحن مكرهون على أن نبدى خلاف ما نضمر

ـ «لا تفرحوا لذهاب من ذهب قبل أن تروا من يجيء»

ـ من يذهب فإلى جهنم ومن يجيء فشأنه شأن من يذهب

وظلت هذه الأحاديث وأمثالها تدور بينهم وهى تزداد باطراد حدة وعنفا ، وفجأة سكت القوم وشخصت أبصارهم الى الباشا وهو يتقدم نحوهم مكفهر الوجه والعمدة يتبعه على قيد خطوة

قال الباشا : لقد طغت هذه البلدة فوجب تأديبها ، وما نحن بعاجزين عن ذلك

فقال فلاح كان شديد التحمس قبل لحظة واحدة : لم يعد فى قلوب الناس إيمان

وقال العمدة رداً على الباشا : سأفعل كل شيء للعثور على القتلة ولو أدى الأمر الى طرح جميع فلاحى البلدة تحت « العدة » وتقطيع جلودهم بالسياط

وشخصت أبصار القوم الى عبد الخالق افندى وهو آت يسير بخطوات ثابتة ويشق الهواء بصدره كأنما هو صاحب الشأن الأول فى البلدة

وأراد العمدة أن يفعل شيئا لأرضاء الباشا ، وحدا به سوء التوفيق الى مهاجمة عبد الخالق ، فقال له : ها أنت أيضا قد جئت تشهد نتيجة تحريضك الفلاحين عليه

فأجاب عبد الخالق متحديا وهو يرفع صوته حتى يسمعه الجميع فى وضوح :

بل هي نتيجة أعماله هو ، وليس أحد مسئولا عن أعمال الآخر ، وليس من العجيب أن يعتدى الناس على من جعل ديدنه الاعتداء على الناس

وقال فلاح قذر : « اذكروا محاسن موتاكم »

فلم يتوان عبد الخالق افندى عن الرد : بل اذكروا مساوىء من كانت الاساءة اظهر ما فى حياتهم . لقد كان القتيل معرضا فى كل وقت لأن يساق الى « اللبمان » بسبب ما يقترفه من الأعمال ضد النساء والرجال . وقد رحمه الله رحمة واسعة بالموت كما رحم بموته أبناء البلدة . وليس الموت بالأمر الغريب فكل من الواقفين هنا معرض للموت فى أية لحظة . وأنا نفسى قد أرادوا أن ينزعوا روحى عن جسدى لولا أنى كنت نزعت عنى معطفى

واستولى الحنق على الباشا فجعله يبدى نزقه كالأطفال ، فأشار بسبابته الى عبد الخالق وقال وهو يضغط على مقاطع الكلمات : فى وسعى أن أقسم أن لك إصبعا فى الحادث

فرد عليه عبد الخالق باحتقار : أما أقسامك فقد شبع الفلاحون منها وأصبحوا يعرفون حقيقة قيمتها ، وأما إصبعى فأنا أفقأ بها عين كل من يجسر على التوهم انه يستطيع التعرض لى . ولو أنى أردت أن أقتل مخلوقا لكنت أنت القتيل ، فأنى لا « أترك الحمار وأظهر قدرتى على البردعة »

وحبس الفلاحون أنفاسهم حتى لا يفوتهم شىء من هذا المشهد الرائع ، وشعر الباشا بالحرج وأحس أن هذا الشاب الذى قدم حديثا الى القرية يحمل أفكارا حديثة وروحا حديثة — يوشك أن يهدم نفوذه الذى قضى فى تدعيم أسسه عشرات الأعوام وأنفق فى سبيل تقويته آلاف الجنيهات ، وعلم أن هذه الدعاية التى يروجها هذا الشاب لن تهدم نفوذه الأدبى فحسب ، بل هى تحصن الأهالى ضد اغتصاب الدائرة حقهم وسرقتها لهم مما يؤدى الى نقص ايرادها نقصا خطيرا . لقد كان يستهين بأمر هذا الشاب فى أول عهده به ، فلما أدرك مقدار ما يمكن أن يسببه له من الخسائر أصبح ولا شاغل له الا التفكير فى كيفية التخلص منه

ونظر الى العمدة يوحى اليه أن يحمل على عبد الخالق كى يحول تيار سفاهته نحو العمدة ، ولكن العمدة لم يفطن الى ما يريده الباشا ، فاضطر الباشا الى مواجهة الشاب بنفسه فقال: إن غرورك يزين لك أنك مستطيع بسفهك ووقاحتك أن تثير زوبعة على البلدة ، ولكن خاب فألك

فتقدم منه عبد الخالق خطوة وقال بصوت مرتفع وقد احمر وجهه وانتفخت أوداجه : إنها ليست زوبعة على البلدة ، بل هى عاصفة فوق مصر ، فوق مصر من أقصاها الى أقصاها تجتث جذور الظلم وتقتلع اصول الفساد ، ولئن لم تعد أنت وأمثالك الى رشدكم قبل فوات الأوان فستدك صروحكم المبنية من القش على رمال متمورة غير ثابتة

فتدخل العمدة قائلا : ما هى نهاية الأمر معك يا عبد الخالق ؟ لئن لم تنته عن هذا الغى وتحبس لسانك فى فمك لأكتبن لك انذار تشرد

فرد عليه عبد الخالق : لم تكتب لى انذار تشرد يا عمدة ؟ هل أنا آخذ من الناس الرشى لأتستر على جرائمهم ؟ هل أقاسم الصيادين مايصطادون وأفرض الأتاوات لنفسى على بائعى البطيخ والقثاء ؟ « من كان بيته من زجاج فلا يحصب الناس بالحجارة »

وغمغم فلاح : صدق

وتبين العمدة ــ لفرط دهشته ــ فى وجوه الفلاحين استعدادا للتألب عليه ، ولم يشأ أن يستعمل سلطة منصبه مع خصم متعلم عنيد كهذا يستطيع أن يرد على مفترياته بتهم حقيقية يوجهها اليه ويتيسر له اثبات صحتها . ولذلك نظر العمدة اليه متظاهراً بالاستخفاف وعدم الاكتراث ، وقال له : طيب طيب . ليس عندى فراغ لك الآن فاذهب عنى

وانصرف عبد الخالق مكتفيا بما ناله من الفوز الصراح الذى شهده أهل البلدة

وقال أحد الفلاحين لمن بجواره بصوت خافت : عندما يكون الحاكم ملوثا يستطيع كل من كان على شىء من القوة أن يتحداه وأن يرفض الأذعان لأحكامه

٢١

ماذا تستطيع أن تفعل ؟

كان عبد الخالق أفندى ميالا الى توثيق أسباب النجاح لدعوته الاصلاحية وكان يرى من واجب كل صاحب دعوة أن يعين من بادىء الأمر بتمام الدقة الاتجاه الذى ينبغى للحركة التى يقودها أن تسير فيه فى جميع أطوارها ، والمدى الذى ينبغى أن تبلغه فى كل مسألة من مسائلها ، وكان عدا ذلك يعتقد بوجوب التضامن التام بين المجاهدين فى سبيل مبدأ من المبادىء ، ويرى أن التضامن لا يصح دون تحديد جميع التفاصيل مقدما تحديداً ينتفى معه كل اختلاف أو سوء تفاهم فى المستقبل القريب ، ولذلك فقد أخذ يباحث الأستاذ نبيه فى العلاج الذى يقترحه للحالة فى بلاد الفلاحين والوسائل التى يصلح بها هذه العيوب الجسيمة التى تجعل بلاد الأرياف على غير ما يجب أن تكون

قال الأستاذ نبيه : هنالك وسائل كثيرة لترقية الفلاحين ، منها اصلاح الأراضى البور على نطاق واسع وبيعها بأثمان تماثل متوسط ما أنفق على اصلاحها من النفقات ، ومنها أن نعمل على زيادة الانتاج وتقليل نفقاته وذلك بتعميم استعمال الآلات وايجاد أسمدة رخيصة الثمن ، وكذلك حماية الانتاج الزراعى من المحصولات الأجنبية ، وتشجيع الاصدار الى الخارج . .

فقاطعه عبد الخالق أفندى متبرما : الى آخره الى آخره . هذه مقترحات تفيد ولا ريب زيادة الثروة العامة وتخفيف أزمة البطالة بعض الشىء ، وفى وسعى أن أعدد لك الكثير من طرازها ، مثلا عدم السماح للأجانب بامتلاك الأراضى الزراعية ، وعدم السماح لأصحاب الأراضى برهنها الا فى مصارف الدولة ، واشتراط أن يكون القرض الذى ترهن عليه الأرض قرضا انتاجيا لأصلاحها . . ولكن هذه المقترحات كلها لا علاقة لها بالفلاح الفقير والعامل الريفى الأجير ، ففائدتها الأصلية عائدة على

اصحاب الأملاك ، أما الفلاح فلا يفيد منها الا بالتبع

ـ وماذا تريد اذن ؟

ـ أريد مقترحات يؤدى تنفيذها الى فائدة الفلاح قبل صاحب الأرض ، او دون صاحب الأرض . . . بل على حساب صاحب الأرض

ـ ولم تضع هذا القيد ؟ أليس المراد هو مساعدة الفلاح على اى وجه ؟

ـ كلا ، فهناك جهات شتى تعنى بمساعدة الفلاح من وجهات مختلفة ، فوزارة الصحة تساعده من الوجهة الصحية ووزارة المعارف من الوجهة التعليمية ووزارة التجارة من الوجهة الاقتصادية . ولئن كان العمل فى هذه المرافق لا يسير بالسرعة المطلوبة ولا يعمل على الوجه الأكمل ، فهو على أية حال يسير نحو أهدافه ، بيد أن هنالك نواحى أخرى لا يجد الفلاح فيها من يخدمه ، وتلك هى التى ينبغى علينا اتخاذها ميدانا لعملنا . يجب أن نعنى بتثقيفه ، فهو يقدم لنا غذاءنا المادى فينبغى أن نقدم له فى مقابله غذاء روحيا ينمى قواه الروحية . ويجب علينا أن نحميه من جشع المرابين ومن طمع أصحاب الأطيان . يجب أن نضع تشريعا يعتبر بمقتضاه ما بقى من نصيب الفلاح من المحصولات بعد خصم نفقات الزراعة ـ أمانة مودعة لدى شريكه صاحب الأرض فكل تصرف سيىء فيها تبديد، وكل تلفيق فى الحساب تدليس يعاقب عليه القانون

ـ ولكن هذا يخالف أصول القانون ، والأصل هو أن كل ما فيه مجال للمحاسبة هو من اختصاص المحاكم المدنية

ـ اذا كانت أصول القانون تخالف هذا وجب ان تغير اصول القانون . لقد أوجدنا القانون لنستخدمه لا لنخدمه . ولقد استطاع القانون فى أوقات مضت أن يؤيد كل اهتضام لحقوق الشعب فهل يعجز الآن عن اسداء حماية متواضعة لأبناء الشعب ؟ ولماذا ينتخب الشعب اذن ؟ لماذا تطلب الى أهالى البلدة أن يتمردوا على مالك أرضها ويعرضوا أنفسهم لنقمته؟ ماهى الفائدة التى تمنحها اياهم مقابل الفائدة التى تسألهم ان يمنحوك اياها ؟

ـ كأنك تريد ان تقول إن فى النيابة عن الشعب فائدة شخصية للنائب . انها على نقيض ذلك عبء عليه ، وانما تعود فائدة النيابة الحسنة على الوطن

ـ اسمح لى . هذا كلام لا أستسيغه . ان الذى لا يريد غير خدمة الوطن يستطيع خدمته خارج المجلس النيابى أيضا . والمبالغ التى تنفق فى الدعاوة الانتخابية تكفى للدعاوة لأى مشروع نافع ، بل هى تكفى أحيانا لتأسيس حزب سياسى جديد . فما الذى فعلته لوطنك حتى الآن خارج المجلس النيابى ؟ وما الذى ستفعله اذا لم تفز فى الانتخاب ؟ . . .

ـ الذى فعلته هو قيامى بمهنتى بكل اتقان ونزاهة

ـ هذا ما تفعله الملايين ، ومع ذلك فأنى أشك أن لمهنة المحاماة فائدة عامة ، واعتقد أن دراسة القانون مقيدة للفكر مضللة للعقل وأنها تصرف الناس عن النظر الى الجانب العملى للمسائل الى النظريات الوهمية واضاعة الوقت فى مجادلات عقيمة ، وأعتقد كذلك أن رجال القانون هم أقل الناس صلاحية لأدارة دفة السياسة العامة

ـ هذا رأى عجيب !

ـ كثير من الحقائق تعتبر عجيبة لا لأنها عجيبة حقاً بل لأن الأكاذيب منتشرة فى العالم بشكل عجيب

واحتدم الجدل فكان من واجب زينب أن تخمد هذا الاحتدام وان تقود المناقشة الى نتيجة مجدية ، فقالت لهما وهى تبتسم : دعانا من هذه الآراء الفلسفية التى لا تقدم ولا تؤخر . وليتفضل الاستاذ فيبين لنا ما هى الخدمات التى يود أن يتعهد بالقيام بها للفلاحين ؟

فقال الاستاذ نبيه ببساطة : سأفعل ما فيه صلاحهم

فسأل عبد الخالق مضيقا عليه الخناق : أليس لك برنامج ؟

ـ وما هى الحاجة الى البرنامج ؟ سأفعل لهم كل ما استطيع فعله

ـ وما الذى تستطيع أن تفعل ؟

ـ قل لى انت ما الذى تريدنى على فعله ؟

ـ أريد مثلا، أن تناضل فى سبيل تمكين أبناء الفلاحين الفقراء من التعلم مثل غيرهم وذلك بجعل التعلم بالمجان فى جميع المدارس على اختلاف درجاتها

ـ معنى ذلك أنه سيكون لدينا مليون طالب فى الجامعة ، وسيكون لنا بعد ذلك مئات الألوف من المحامين والأطباء والمهندسين وغيرهم ، فهل ترى أن البلد يحتمل كل هذا العدد؟

ـ لعلى لم أوضح فكرتى توضيحاً كافيا . انى لا أتكلم عن زيادة عدد المدارس وطلبتها ، بل عن كيفية اختيار الطلبة . فالمتبع فى الوقت الحاضر هو أن لا يسمح بالتعلم فى المدارس الابتدائية فما فوقها الا لمن يستطيع دفع المصروفات المدرسية ويحرم من ورود حياض العلم من لم يكن أهله موسرين ، ونتيجة ذلك اضمحلال كثير من الكفايات والعبقريات فى أطفال الفلاحين والعمال والقضاء عليها ، وبذلك يظلم هؤلاء الأطفال وتحرم الدولة من كفاياتهم ، وترغم على قبول عدد من الأطباء والمحامين وغيرهم من ذوى المقدرة المتوسطة الذين لم تؤهلهم مواهبهم لشغل هذه المراكز وإنما أهلتهم أموالهم

ـ فى كل مدرسة نسبة لا بأس بها من الطلبة يدرسون بالمجان

ـ بل بها كل البأس ، وعدا ذلك فأن هذه المجانية ينتفع بها فى بعض الأحيان أولاد الأغنياء وفى بعض الأحيان أولاد المحسوبين عليهم وعلى كبار الموظفين وفى كل الأحيان سكان المدن . على أنى لست الآن بصدد التحدث عن نسبة المجانية وقواعد تطبيقها ، بل أتحدث عن الغاء الشرط المالى بحيث لا يقبل فى المدارس الا أقدر الطلبة وأصلحهم مهما بلغ من فقرهم ، فاذا لم تتسع المدارس لجميع الراغبين فى الدرس فليرفض أقل الطلبة جدارة وإن كان آباؤهم من أصحاب الملايين

ـ وهل تعتقد أن الامتحانات تبين الأفراد المتازين حقاً ؟ أنا اعتقد خلاف ذلك ، فكم من فيلسوف أو مفكر من اعظم الفلاسفة والمفكرين كان فى المدرسة من اكثر الطلبة تأخرا . وهذا مفهوم ، فأن الصفات المطلوب توافرها للنجاح فى

الامتحانات المدرسية غير الصفات اللازمة للنجاح فى الحياة أو لتكوين شخصية فذة.

ـ إنما أتكلم عن نظام الامتحان على اعتباره خير نظام فى الوقت الحاضر للتمييز بين الطلبة ، فأذا وجد ـ فيما بعد ـ نظام أفضل منه فسيتبع بداهة . هذا خارج عن موضوع الحديث ، وانما أقصد أن فوارق الثروة ليست هى التى يجب أن تجعل هذا الصبى طبيبا وذاك ممرضاً وهلم جرا

ـ لا أقول إن رأيك مجرد من الحق ، ولكن المسألة تقتضى دراسة وتفكيرا . وقد نعثر على حل وسط يكون ميسور التنفيذ

ـ الحلول الوسطى مصيدة ينبغى محاذرة الوقوع فيها

ـ من طبيعة الاسراع فى السير أن يقيم العقبات ويخلق المقاومة ، ولعلك ما زلت تذكر أن الكثيرين كانوا يقاومون فكرة تعميم التعليم الالزامى وكانوا يقولون إنه سيدفع بالفلاح الى التذمر والثورة

ـ كان ذلك مكرا منهم فى التعبير ، والأمر إن الفلاح بعد تعلمه سيطالب بتحسين حالته ، وسيكون قادرا ـ الى حد ما ـ على حماية نفسه من التلاعب بحساباته الزراعية . أما الضجة التى تحدثنى عن قيامها حول التعليم الالزامى فأنها لم تفد محدثيها شيئا فالعالم سائر الى الأمام ، وكل ضجة يراد بها الرجعية فمصيرها الأخفاق

ـ إن الحركات التى تتقدم بسرعة زائدة تضطر فى احيان كثيرة الى النكوص الى الوراء ، وذلك ما وقع فى بعض البلدان الأوربية . إننى أريد أن أقدم مقترحات يمكن قبولها . أما الآراء المتطرفة التى نعرف أنها سترفض على أى حال ، فمن العبث أن نعرضها

ـ لست أرى فى ذلك عبثا البتة ، فما يرفض اليوم لن يرفض غدا . أما مالا يطالب به مطلقا فلن يقبل لا اليوم ولا غدا

ـ مسألة التعليم هذه ليست بالمشكلة المستعصية الحل ، ومن الممكن التصرف

فيها بما يلائم المصلحة ، فهل لديك مقترحات أخرى ؟

ــ أجل ، فمن اللازم وضع نظام للايجار الزراعى ولا سيما نظام الزراعة بطريق الشركة بين الفلاح وصاحب الأرض . ان حالة الفلاح فى حاجة ماسة الى علاج سريع فأن جهله وتهيبه ، مضافا اليهما قسوة الظروف الاقتصادية وفوضى النظام الاقتصادى ، كل ذلك يتآزر على تركه فريسة لجشع صاحب الأرض ويدع كاتب الزراعة يكتب حساب زراعة الفلاح على النمط الذى يعرف أنه يرضى سيده . وهكذا يأتى الفلاح بعد نهاية عام طويل من السخرة المضنية والشك المبرح فيجد أنه قد أنتج لسيده كل شىء ولم ينتج لنفسه شيئا . أجل ، يضطر المالك فى سبيل الاحتفاظ بحياة فلاحه وتبعيته له الى التصدق الاجبارى عليه ببعض كيلات من الذرة تمنع عنه الموت جوعا وإن لم تمنعه مرضا وهما ، ولكن العام الزراعى ما يكاد ينتهى حتى يزور كاتب الزراعه حسابا ــ شفويا فى الغالب ــ يوهم به الفلاح أنه خاسر أو ضئيل الكسب ، ويحدث فى كثير من الأحيان أن يتغاضى صاحب الملك عن تقديم الحساب ، وقد يعترف له بحقه من الوجهة النظرية ولكنه يأبى ان يسلمه ربحه بحجة أن أقساما أخرى من زراعة المالك لحقها التلف والبوار . فما هى الحماية الفعلية التى يقدمها القانون للفلاح ؟ لا شىء

ــ وما هى الحماية التى يستطيع تقديمها ؟

ــ هى تنظيم طرق الايجار الزراعى ، فيجب أن يتضمن عقد الايجار تقييدا لصاحب الأرض بوضع مقدار مناسب من المخصبات وبتقديم البزور فى المواعيد المناسبة وتطهير المصارف سنويا وضمانة كفاية ماء الرى وانتظام مواعيده ، فأذا أهمل المالك شيئا من ذلك كان عليه أن يعوض شريكه الفلاح عن الخسائر التى ألحقها به . أما الفلاح فلا ينبغى أن يتحمل من الخسارة الا ما نتج عن اهماله لا ما نشأ عن عاهات لم يكن فى مقدوره التغلب عليها . وعدا ذلك فيجب أن يحدد المالك مقدما ما يتقاضاه أجراً للحرث والدراس إن كان يقوم بذلك بالآلات من عنده ، ويجب أن يبين أجور هذه العمليات

فى دفتر صغير مختوم بخاتمه يعطيه للفلاح ويقيد فيه أولا فأولا كل ما اقتضته منه الزراعة من النفقات ، وأن يقدم للفلاح حسابا ختاميا مرتين كل عام ، مرة بعد درس المحصوت الشتوية كالقمح والفول ومرة بعد جنى القطن وحصادالأذرة . على أن يستولى الفلاح فى كل مرة على ما يتبقى له بعد دفع الحصة من الايجار المطلوبة منه

ـ فى هذه الحالة سيمتنع أصحاب الأراضى عن مشاركة الفلاحين

ـ اذا كان أصحاب الأراضى يأبون مشاركة الفلاحين حين يطلبون اليهم اعطاؤهم الضمان على نيلهم الحقوق التى يعترفون لهم بها نظريا ، اذن فليزرعوا على نفقتهم ويستأجروا العمال على أن يدفعوا أجورهم يوميا أو أسبوعيا إن كان لديهم من المال ما يستطيعون انفاقه مقدما بصفة أجور للعمل ولن يكون هذا أضر على الفلاحين من الطريقة المتبعة الآن

ـ أظن أن مقترحاتك هذه يصعب تنفيذها

ـ لم أطلب إليك تنفيذها بل مجرد عرضها واعلانها

ـ ان اعلان ذلك فى الوقت الحاضر يحرمنى معونة أعيان القرى المجاورة ، وبذلك يستحيل على النجاح فى الانتخاب

ـ اننى أنظر الى النجاح فى الانتخاب باعتباره وسيلة لا غرضاً ، وسيلة للخدمة العامة ، لخدمة الذين نسألهم أصواتهم الانتخابية ، فاذا كان النجاح فى الانتخاب لا يتم الا بالخيبة فى خدمة الناخبين والعدول عن ايقاظ هؤلاء النائمين فالأخفاق خير منه

ـ اذا ألححنا فى إيقاظ هؤلاء النائمين نقموا علينا ازعاجنا اياهم ، وكانوا فى مقدمة الذين يصلوننا الحرب ، وليس يخفى عليك أنهم مازالوا كالأغنام لا يميزون بين ما ينفعهم وما يضرهم

ـ اذا كان هذا اعتقادك فلم تريد أن تكون ممثلا لهم ، ولم تدعوهم لأنابتك عنهم ؟

ـ لأنى أريد الدفاع عنهم والأخذ بيدهم رغماً عنهم

ـ لن تستطيع ان تأخذ بيدهم حقا ما لم تكن تشعر نحوهم بالتقدير والاحترام .
وقد طالما رأينا فى تاريخ النهضات أفراداً رفعتهم شعوبهم الى منصة الزعامة ليتولوا الذود عنها فلما تبوءوها أصبحوا يأتون ماكانوا يعيبون على غيرهم ، وما ذلك الا لأنهم فى قرارة أنفسهم لم يكونوا يؤمنون بالشعب

وأحب الأستاذ نبيه أن لا يتورط فى مخاصمة عبد الخالق أفندى أكثر من ذلك فبدأ يوافق على آرائه بوجه عام ثم غير الحديث وسأله : الى أى حد يحق له أن يأمل فى مناصرة فلاحى قصر مظهر له فى الانتخاب

فأجاب عبد الخالق : لاسبيل الى المبالغة فى الأمل فأن الذين يمنحونك أصواتهم انما يجازفون بمستقبلهم ، وهذا مايجعل عملهم جديراً بالتقدير المضاعف ، وليس الانتخاب فى القرى سريا فأكثرية ناخبيها أميون ، والذين يعرفون الكتابة منهم يضطرون الى اعطاء أصواتهم شفويا حتى يبينوا لمندوبى المرشح أنهم لم يخرجوا عن طاعته وقد كان الواجب أن يستغنى عن التصويت الشفوى والكتابى بوضع صناديق مختلفة الألوان داخل غرفة لا مندوبين فيها ، فيضع كل فلاح ورقته فى الصندوق ذى اللون المخصص لمن يريد انتخابه

ورد عليه الأستاذ نبيه قائلا : ليس فى استطاعتنا الآن أن نغير الحالة الحاضرة فعلينا أن نكافح فى حدودها الى أن يتاح لنا الحصول على خير منها ، وعلينا أن نبذل كل جهدنا ، أما النتيجة فرهن بيد القدر

٢٢
المال الحرام

وجاء عمارة يشكو أمره الى عبد الخالق أفندى ويلتمس مساعدته ، فقد أرسل اليه الباشا يدعوه اليه فلما مثل بين يديه أخبره أنه فى حاجة الى مال ينفقه على الدعاوة الانتخابية وكلفه أن يبيع البقرة التى يمتلكانها مشاركة . لقد كانت هذه

البقرة حين تشاركا فيها لا تساوى أكثر من جنيهين ولكن الباشا قرر أن تكون المشاركة على أساس أن ثمنها أربعة جنيهات ، وقبل الفلاح المسكين هذا التقدير التعسفى المفروض عليه لأن الباشا ـ حسب منطقه ـ دفع الثمن من جيبه نقداً .
وكان الفلاح يفترض أن هذه الشركة ستمتد حتى يصبح ثمن البقرة نحو عشرة جنيهات مثلا فينتفع ببعض الشىء بمجهوده فى تربيتها ، ولكن ها هو الباشا قد أمره الآن ببيعها وهى لا تساوى الا نحو ستة جنيهات ، فأذا ما اقتطع من نصف ثمنها الجنيهين اللذين كان عمارة قد كتب بهما صكا على نفسه ـ لم يبق له الا جنيه واحد مقابل عمله العام كله . أما الباشا صاحب رأس المال فيستولى على خمسة جنيهات منها جنيهان رأس المال وثلاثة جنيهات ربحهما وهو ربح يعادل مائة وخمسين فى المائة !

قال عمارة : لقد جئتك راجيا أن تشترى هذه البقرة غدا فى السوق وتشاركنى أنت عليها . أنت تعرف أن الباشا لم يقرر نقض شركته معى الا لأنى دعوت الأهالى الى اسقاطه فى الانتخاب والتصويت للمحامى ، فمن العدل أن تعوضنى عما خسرته بسبب ذلك ، ولا سيما أن ذلك لن يضرك فى شىء

فأجاب بالعكس : هو يفيدنى فائدة كبيرة ، فائدة تبلغ من الجسامة حداً أتردد معه فى قبولها

فتدخلت زينب قائلة : سأشتريها أنا وأشاركك عليها على أساس ثمنها الحقيقى ثم أجعل لك ثلثى الربح وأكتفى أنا بالثلث

فقبل يدها وانصرف وهو يكرر الدعاء لله أن يبقيها طويلا على قيد الحياة

وطفرت دمعة من عين زينب وقالت : مساكين هم هؤلاء القوم

فقال عبد الخالق : هم مساكين الى حد أن الانسان يحتاج الى جعل احساسه يتبلد ليستطيع أن يحتمل شهود مآسيهم المتتالية دون أن تخور قواه . ان المقيم فى الريف ليضطر لسلامة نفسه أن ينتزع من قلبه ما يكون فيه من رقة الشعور سواء أكان من فريق المستغلين أم من المشاهدين

٢٣

لا محل للتردد

كانت زينب لا تشعر بارتياح نحو الأستاذ نبيه ، وكان عبد الخالق ينفر من اسلوبه فى التفكير ومن جرأته على التمويه والمخاتلة ، ويرى أنه ، فى واقع الأمر ، ينظر الى الناس نظرة مظهر باشا اليهم ، ومع ذلك فها هو يرى نفسه مقسورا على أن يختار بينهما وينتخب أحدهما

نعم ، إنه يستطيع أن يتخلى عن العناية بهذا الانتخاب ويمتنع عن التصويت بتاتاً فيكون ذلك ضرباً من الاعتراض الصامت على شخصيتى المرشحين ومبدأيهما ، ولكنه كان يتردد إزاء هذه الفكرة كلما فكر فى عظم التضحيات التى بذلتها الأمة لايجاد الدستور وصيانته ، ثم يعود فيقرر لنفسه أن حصول المرء على حقوقه لا يقتضى استعماله إياها . موقف محير !!!

وجاء الشيخ مصطفى يخبره أنه كان مع الباشا وأن الحديث دار بينهما عن الانتخاب ، فأخذ الباشا ينتقص الأستاذ نبيه وأمثاله زاعماً أنهم قوم لا مبدأ لهم ، وقال إنه يستطيع أن يحمله على التخلى عن ترشيح نفسه ببضع مئات من الجنيهات لولا أنه يرى أن الأمر أهون من أن ينفق بسببه قرشا واحدا ، ثم استطرد الباشا الى ذكر حدبه على الفلاحين وصدقاته على المعوزين منهم وحرصه على تعزية أبناء البلدة فى من يتوفى من أقربائهم ، وتشييده لهم جامعا فخما يقيمون فيه صلواتهم ووو ... ثم قال إنه قد تحقق الآن أن ناظر الزراعة المقتول كان يظلم الفلاحين ويسىء اليهم كما كان يسرق الدائرة وإنه لقى جزاءه العادل وكفر بدمه عن آثامه . وقد أرسلنى لأعرض عليك رغبته فى أن تقوم أنت مقام ذلك الناظر مع منحك الأجر الذى تريده

فابتسم عبد الخالق وقال : فى وسعه أن ينتظر الى آخر عمره

وقالت زينب : فليبعد عنا بخيره وشره

فقال الشيخ مصطفى : إنما أنمى اليك ماقاله ولست أحبذ حلا بعينه . وهو يراك جديراً باللوم لأنك تعين على ابن بلدتك هذا المحامى الأجنبى عنها

ـ اذ كان ابن بلدتى شرا عليها من الأجنبى فليس له أن ينتظر منى معاونة

ـ وهل ترى الأستاذ يفضل الباشا كثيرا ؟

ـ « فقلت هما أمران أحلاهما مر »

ـ فما الذى يحملك على مناصرة ذاك على هذا ؟

ـ رغبتى فى جعل الفلاحين ينمون إرادتهم ويتعودون أن يقفوا من صاحب الملك موقف من يشعر أن له قيمته ويحس أنه إنسان ذو كرامه

ـ قد يكون فى الاستطاعة حمل الباشا على الوقوف من الفلاحين موقفا يصون لهم فيه كرامتهم

ـ أعتقد أن قيام الفلاحين فى وجه الباشا أحفز لهممهم من تقرب الباشا اليهم ، لأن موقفهم فى الحالة الأولى يكون إيجابيا وفى الثانية سلبياً ، وعدا ذلك فليس لوعود الباشا قيمة عملية ، فإذا أكرهته الأحوال على أن يلبس الآن فروة الحمل فسينزعها عنه عند تبدل الظروف ليبدو من جديد فى جلده الذئبى . وإنما تتغير الحال متى كنا نحن الذين ننزع عنه جلد الذئب ونمزقه فلا يعود قادرا على ارتدائه مرة أخرى لا هو ولا سواه .

إننى لست أستجدى بعض الاحسان لعدد من أبناء هذه البلدة بل أعمل لأنهاض الفلاحين جميعا ، وما أنا بالانتهازى فأفرح بأى غنم يعرض على وارتضيه ثمناً لوقف الحركة

ـ إن هو الا وقف موقت لها

ـ إن الذى يقف الحركة التى يقودها على زعم أن يسيرها من جديد عندما يشاء لهو خادع نفسه ، فحياة الحركات فى استمرارها واحتفاظها بالحرارة المتولدة من اندفاعها ، ومتى وقفت انقطعت عنها حرارة الحياة وماتت

ـ لست أدرى الى أى حد تستطيع أن تسمى ما حدث الى الآن حركة . وعلى

كل فأنى ألخص لك الآن ما أوفدت من أجله : فالباشا يعرض عليك الصلح ، فما هو جوابك ؟

— إنه بالبداهة لا يعرضه على شخصى بل على الفلاحين الذين أدافع عن مصالحهم ، وعلى ذلك فلا صلح الا على شريطة أن يتزل عن ديونه قبلهم ويخفض إيجار الارض لهم ويزيد مرتب الأجيرين منهم ويعطى الفلاحين ضمانات تطمئنهم الى أنه سيحاسبهم على زراعتهم بكل دقة وامانة

*
* *

بقى عبد الخالق متململا ينتظر رد الباشا وإن كان على يقين أنه لن يكون غير الرفض

أجل ، هنالك بضعة بواعث كان يصح أن تدعو الباشا الى القبول ، فديونه قبل الفلاحين تعتبر ميتة من الوجهة العملية ، وفى الغائها رسميا ما يحفزهم الى مضاعفة الكد فى خدمة أرضه، وفى رفع رواتب العمال الاجيرين ارضاء لجميع أهل البلدة وضمان للفوز بأصواتهم فى الانتخاب . ولكن عبد الخالق افندى رغم ذلك لم يكن مخدوعا فى النتيجة، فهو يعرف تماما أن هذا الباشا ومن على شاكلته لا يسلمون بشىء مهما ضؤل خطره مالم يجدوا أنفسهم مجبرين على التسليم به . إنهم ينظرون الى الأمور من وجهة مصلحتهم الخاصة، مصلحتهم العاجلة لا الآجلة ، وكثيرا ما يتسببون بجشعهم وعنادهم وقصر نظرهم فى الحاق أكبر الاذى بمصلحتهم الحقيقية الدائمة

*
* *

قدم الشيخ مصطفى فى فجر اليوم التالى فاستقبله عبد الخالق بابتسامة يائسة وقال له : خير ! سبع أم ضبع ؟

فأجاب : بل أقل من ضبع . ابن آوى . لقد ارجعنى الباشا ابن آوى

— أما أنا فقد جعلنى أسدا مفترسا . حدثنى بالتفاصيل

— الامر ما أيسره ، فقد ظللت أحدثه بما كان واشرح له وجهة نظرك وأحاول

اقناعه ، وهو منصت الى حتى انتهيت من حديثى

ـ وبعد ؟

ـ ثم نادى عامل « التليفون» وقال له «أنالم أفهم تماما ماذكرته عن حديث وكيل المديرية ، فما الذى كان يريده ؟ » فأجابه « إنه يبلغ سعادتك أن منافسك فى الانتخاب نزل عن ترشيح نفسه فأصبحت سعادتك نائبا بالتزكية »

فقال الباشا : اذن فقد تم تعيينه فى منصب مأمور الأدارة . لقد رجوت اليهم بشأنه من يومين ، ولم أكن أعتقد أن الامر سيتم بهذه السرعة

وعندئذ لم يبق أمامى الا أن أهنىء الباشا بهذه النيابة ، وقلت له : إنى مسرور على أية حال لأن المسألة انتهت

ـ ما أظنها انتهت ، بل الأحرى أن يقال إنها ابتدأت

ـ لقد كان الأستاذ نبيه غير متفائل بالفوز فى الانتخاب ففضل أن يلتحق بهذا المنصب بمرتب عشرين جنيها فى الشهر على أن يجازف بالمنصب المرغوب من أجل كرسى النيابة البرلمانية

ـ ياله من ثمن بخس

ـ هو يرى أن عشرين جنيها فى اليد خير من أربعين على الشجرة . لكل امرىء أن يختار طريقه

ـ ولكن ليس له أن يتراجع عند احتدام المعركة فيعرض رفاقه للهلاك ، وليس له أن يختار أسوأ الأوقات ليتخلى فيها عمن ألقوا عليه اعتمادهم فيقتل فى نفوسهم الثقة بالأخلاص للمثل العليا والتضامن فى سبيل تحقيقها . لقد عرضوا أنفسهم للمكروه وضحوا بمصالحهم الشخصية الحيوية من أجله ومن أجل المشروع الذى يدعو اليه ، فأذا به يساوم خصمهم على إهدار مصالحهم العامة

فليهنأ الباشا بظفره على فلاحيه . كم من فرد أو هيئة أوتيت النصر لا لأنها استأهلته ، ولكن لأن خصومها كانوا أنذل منها . إنه يسخر الآن من جهادنا ويضحك من تحمسنا ويهزأ بآلام هذه الألوف . انى لأسمع قهقته تدوى تهكما

وسخرية ، ولكن هذه القهقهة لن تلبث أن تنقلب صرخة ألم كصرخة الوحش المطعون، وسيكون عويله أكثر دويا من ضحكه الفاجر الوقح

لقد انتقل العالم الى عهد جديد ولكن ذلك الطاغية يأبى الا أن يعيش بعقلية العهد القديم ، عقلية الدسائس السخيفة والمكر الوضيع ، عقلية التعقب والاضطهاد. العالم يتحرك الى الأمام وهو يريد وقفه عن التقدم ليديم عهد السخرة التى يستمد منها جاهه وثراءه ، عهد الانفراد بالتهام كل شيء ، عهد ابقاء الجماهير على جهلها واستغلال هذا الجهل فى السيطرة عليها ، عهد الرق القديم فى ثوب جديد

انه وأمثاله يقاومون التقدم ولكنها مقاومة مخفقة ، فقد بلغ العالم أشده وأصبح قادراً على السير بلا تعثر . لقد دب التعفن فى جسد ذلك الأسلوب القديم الذى يستخدمونه ، ولكنهم مصرون على الاحتفاظ به .

إنهم يأبون الا القتال فالى المعركة وانا لواثقون من الانتصار فى النهاية . البشرية سائرة الى الأمام باطراد فاذا ماوقفت لحظة أو رجعت خطوة فأنما لتستجمع قواها وتعود فتحطم الموانع والحواجز ، وبذلك لن تكسب المقاومة الرجعية الا أن تجعل سقوط البناء المتصدع الموفى على السقوط أشد عنفا وأقوى جلبة وأكثر ضحايا

ولا محل فى أوقات الجد والساعات الفاصلة فى تاريخ البشرية للتريث أو التردد ، فأن الروية والحرص على القسطاس وغير ذلك من المثل العليا لا يصح أن تعرقل سير البشرية وتحبط عمل العاملين لها ولا ينبغى أن تنقلب تباطؤا عن احراز الفوز واحجاما عن العمل السريع الحاسم

لقد حرر لنكولن زنوج أمريكا من الرق فعلينا نحن أن نحرر فلاحى مصر من السخرة

٢٤

لحظات الشك

ألقى عبد الخالق بنفسه تلك الليلة فى فراشه ، وبقى ردحا من الوقت مبلبل الفكر لا يغمض له جفن ، يتناهبه اليأس والألم وتفترسه الشكوك القاتلة : هل كتب عليه أن يتابع هذا الجهاد المضنى وأن يواصل هذا الكفاح الدامى ؟ ولماذا ؟ وفى سبيل من ؟ إن هؤلاء القوم قد أعرضوا عن تعاليمه ، ولم ينتهزوا فرصة وجوده بينهم للانتفاع به بل للانتفاع على حسابه ، فهو يضحى بنفسه فى سبيل تحريرهم فيضحون هم به فى سبيل توكيد عبوديتهم لطغاتهم ومستغليهم

أخذ يستعرض فى ذهنه تلك الأدوار المثيرة للاشمئزاز التى كان يلعبها المأذون والعمدة وناظر الزراعة وكاتبها وكل من اتصل بالباشا بصلة عمل أو صلة مجالسة ومؤانسة . لقد وجد ذلك كله مجرد تهريج ، فهم جميعا مهرجون ومهرجون من طراز خسيس رخيص . لقد كان شاهد فى حداثته مهرجا متجولا يرتدى لباسا محيكا من رقع شتى غير منتظمة ولا متجانسة ، ويضع على رأسه قلنسوة يمتد من قمتها خيط يبلغ الذراع طولا وينتهى بذيل (زر) ضخم ، فإذا ما دار الرجل حول نفسه دار الزر حوله فى دائرة تختلف أوضاعها باختلاف ميل رأسه ، فكان النسوة المطلات من النوافذ والصبية المتكأكئون حوله يغرقون جميعا فى الضحك ، وكان هو يقفز فى الهواء ويلوح بذراعيه ويصيح صيحات شاذة ويستخدم كل عضو من أعضائه فى الاتيان بحركات تستثير الرثاء كيما يثير ضحك هؤلاء النسوة فيثير كرمهن عليه ببضعة ملاليم أو أنصاف قروش يلقين بها اليه

ويذكر عبد الخالق أنه كان فى ذلك الوقت يتفرس فى وجه الرجل فيتبين فيه التبرم والأسى . كان الرجل يشوه منظره ويمسخ حركاته فى سبيل العيش ، ولكنه لم يكن يشارك هؤلاء الحمقى ضحكهم وطربهم . لقد كان عبد الخالق يدرك ان هذا المهرج يهين الانسانية فى شخصه ولكنه كان يعلم علم اليقين أن ذوى المال لن يسمحوا له من

مالهم الا بقدر ما يبالغ فى إهانة انسانيته

كان هذا المهرج فى نظر عبد الخالق افندى قديساً بالقياس الى حاشية الباشا والى الباشا نفسه ، فأن هؤلاء القوم قد بلغ بهم التدهور الخلق حد الرضاء بالتهريج والأمعان فى التهريج والتنكيل بمن يترفع بنفسه عن التهريج . لقد باعوا نفوسهم بيع الرقيق ، فلو ردت لهم الحرية لناءوا بها ، وإذن فالوبال لدعاة الحرية

أخذ عبد الخالق افندى يستعرض فى ذاكرته ما عمله القوم للنكاية فيه والتنكيل به . لقد كانوا يبغضونه لأنه يرفض أن ينحدر الى ما انحدروا اليه ولأنه بترفعه وإبائه كان يقيم لهم المثال الذى ينكرونه ، المثال الذى كان يجب أن يكونوا على غراره ، وكانت المقاييس الأدبية والأنسانية التى يتعلق بها تجسم أمامهم على الدوام مقدار اسفافهم ومدى تدهورهم . لقد كانوا يحقدون عليه حقداً صليبياً لأنه يعبد إلها غير «مامون(المال)» الذى يعبدونه

على أن مصيبته فى هؤلاء لم تكن هى الطامة الكبرى فقد كان افترض من بادىء الأمر أنهم حشرات لا يطيب لها العيش الا فى القذارة والظلام . ولكن : هل الانسانية كلها على نمط هؤلاء ؟ أليس فى هذه البلاد فرد واحد يستطيع أن يحتفظ بأنسانيته سامية عن هذه الأدران ؟ كيف يصدر هذا عن الأستاذ نبيه ؟ أين ذهبت تلك الحماسة الملتهبة والعزيمة المتوثبة ؟ وفيم كانت تلك الفصاحة الساحرة ؟ . . . .
لم يكن كل ذلك الا نفاقا . ان الانسان لمنافق منافق . الأنسان حيوان منافق . كل خلية من خلاياه مترعة بالنفاق . ترى الشعراء ينظمون القصائد الطوال مدحاً فى «كافور» أو تهكما « بفولستاف » وما فى الأول من حسنة غير الغنى والسلطان ولا فى الثانى من عيب سوى الفقر والهوان . ولكن الأنسان منافق منذ أن كان تراباً . ليس النفاق فيه أمراً مكتسبا من البيئة بل إن نفاق البيئة أمر مكتسب منه ، فالكلاب والقططة تتملقه فى المنازل وسباع البر والبحر تتكاف الابتسام لمداعباته السمجة فى ملاعب «السيرك» . أليس الناس يشيعون جنازات اعدائهم أداء لواجب النفاق ؟

لقد أنعم عبد الخالق النظر فى حقيقة هذا العالم الذى يعيش فيه وتعمق فى التنقيب عن دفائنه ، فاقتنع تمام الاقتناع أنه ليس الا مجموعة من الأكاذيب والأباطيل . وقد كان هذا الاقتناع فيما مضى يبعث فيه الاحساس بعظم الواجب المفروض عليه فى تنبيه الناس الى كذب مالقنوه من الاصطلاحات وفى تعرية الاشياء من الطلاء الكاذب المموهة به ليتبينوها على حقيقتها ، ولكن ما لقيه من جهل الناس وغبائهم وماقاساه من عدائهم طوراً وتارة من استخفافهم وتهكمهم، يجعله يعود الآن فيسائل نفسه : لم كل هذا النصب والعناء والناس أغبياء وسيظلون أغبياء الى يوم الفناء ؟ إن المجتمع يعاقب الذين يحاولون هدايته وخدمته بأقسى مما عاقب اليهود أنبياءهم . إنه يصفح عمن يؤذونه ولكنه لا يغتفر قط لمن يعملون لخيره

لقد كان يرى المجتمع فاسداً الى حد الرغبة فى هدمه كما هدم نوح ذلك المجتمع الفاجر الذى كان يعيش فيه . لقد أصبح الآن يحس بالعطف على المجرمين ويرى فى جرائمهم ضربا من الاحتجاج على فساد المجتمع

ليس العالم الا سلسلة أكاذيب ، ولكنه هكذا بنى ، وليس اعلان الحقائق الا دعوة لهدم مابنى على غير الأصول واقامة بناء آخر مستكمل جميع الشروط التى من شأنها اسعاد أهله . ولكن أكثر الناس ليسوا الا حيوانات ، وليس ينتفع من نعتهم بلقب الأناسى الا حائكو الثياب . وبما أن العالم أكسل من أن يقبل هذا الهدم والبناء فهو يرفض التجديد ، فاذا فضح نبى من أنبياء الانسانية زيف القواعد الاجتماعية والخلقية السارية الآن وأوضح سخفها وأثبت أنها لم تعد الا ستارا لقضاء أغراض طبقة معينة من الناس ، ثار عليه الغباء العجيب والغباء أكبر قوة تحكم العالم فى هذه الأيام وتحركه وفق قوانينها، وانه لمن القوة بحيث يستخدم العلم والعلماء فى صب النظريات اللازمة له (كنظرية تفوق بعض الأجناس) وبحيث يستخدم كل القوى (كقوة البخار والكهرباء) فى شق الطريق له أثناء الحرب والسلم . أجل، ثار عليه الغباء وانقضت عليه جيوش الكسل الفكرى المفرط ورماه المنافقون وسدنة الأصنام الجديدة بأنه فوضى إباحى لا يتقيد بخلق ولا يعترف بقاعدة ،

وهو زعم تهويلى مضلل . إن الأنبياء الجدد يعملون على نشر قواعد خلقية حديثة تستند الى العقل لا الى الخرافات وتناسب القرن العشرين لا القرون الوسطى ، يريدون إيجاد قواعد صالحة ينفذها الجميع فى السر والعلن لا قواعد فاسدة لا ينفذها حتى الداعين اليها ، قواعد يراعى فى وضعها مصلحة الناس كافة لا مصلحة واضعيها ومن فى خدمتهم

غير أن الغرض بعيد وأسباب الانتقال تتحرك الى الأمام فى بطء ولكن ما أسرع ماتعود القهقرى . والمهم أن الناس أنفسهم يرفضون العمل لما فيه صلاحهم . إنهم أشبه شىء بقطيع من البهم يحاول راعيه اخراجه من الاصطبل الضيق المظلم الذى لا يحتوى على علف جيد ليذهب به الى المرج الأخضر الفسيح حيث ينعم بالشمس والهواء والعلف ، ولكن البهم تأبى الخروج

كان عبد الخالق أفندى يكاد يختنق ألما من هذه الوساوس والشكوك ، فهو يضحى بحياته كلها ولكن يخيل اليه أحيانا أنه يضحيها فى سبيل أوهام ، فليست البشرية براغبة فى التقدم، ولئن رغبت فستجد فى كل وقت من المغفلين من يضحون بأنفسهم فى سبيلها . ولكن لماذا يضحى هو أيضاً ؟ لماذا ينبغى أن يضحى هو بالذات فى سبيل الآخرين ؟ لماذا يحطم هو هناءته وقد أشرفت على الاكتمال ويزج بنفسه فى غمار المتاعب ولديه من المؤهلات ما يكفل له أن ينعم فى الحياة وأن يذلل قياد النجاح باعتبار المقاييس المألوفة التى يقاس بها النجاح

لقد لقنه والده فى البيت ولقنه المعلمون فى المدرسة مبادىء الأيثار والتضحية والشهامة والتسامح والكرم والصراحة فهل أفادته هذه النصائح أم كانت نصائح أصدقاء جهلة ؟ وهل هذه الصفات التى دعوه الى التخلق بها مما يعين على النجاح ؟ كلا ، بل هى داعية الخيبة وأس الاخفاق ، فهى كالأثقال الحديدية التى يشدونها الى ظهور الجياد القوية السريعة فى حلبات السباق فتعرقل عدوها وتؤخرها عن بلوغ السرعة التى كان فى وسعها بلوغها

لقد قال له والده أن يستمسك بصفات الرجولة ولكنه وجد أخيراً أن الرجولة ليست أن يفسح طريق الرقى لمن هم أقل رجولة ، واذن فالرجولة هى ان لا يكون المرء

ذا رجولة . وقد لقنه معلموه أن يعمل حسنا ، ولكنه يرى الآن ان المرء يحسن فى هذا الزمن اذا كان لا يعمل الحسن ، فهو ان عمل حسناً أصابه السوء ، واذا أصاب امرءاً سوء فليتحر سببه فى ما عمل من حسنات

ان هذا العالم عملى لا يعترف بتلك القيم التى لقنوه إياها فى صغره ، بل يعترف بالمال مهما كان مصدره وبالسلطة مهما كان سبيل الوصول اليها والاحتفاظ بها ، فلم يستمسك هو بهذه القيم ؟ ان الناس تتسامح فى جميع الجرائم الا ما يمسك فاعلها متلبسا بها ، فالعار فى أن يضبط المرء لا فى أن يجرم . وقلما يؤاخذ المجرم على جرمه بل على قلة حذره

لقد أصبح عبد الخالق أفندى يدرك الآن فقط عمق الحكمة التى تضمنتها تلك الحكاية التى قرأها فى صغره ، فقد « زعموا أن جماعة من القردة كانوا سكانا فى جبل فالتمسوا فى ليلة باردة ذات رياح وأمطار ناراً فلم يجدوا ، فرأوا يراعة تطير كأنها شرارة نار فظنوها نارا وجمعوا حطباً كثيراً فألقوه عليها ، وجعلوا ينفخون طمعا ان يوقدوا نارا يصطلون بها من البرد . وكان قريبا منهم طائر على شجرة ، ينظرون اليه وينظر اليهم ، وقد رأى ما صنعوا فجعل يناديهم ويقول : لا تتعبوا فان الذى رأيتموه ليس بنار ، فلما طال ذلك عليه . . . تقدم الى القردة ليعرفهم أن اليراعة ليست بنار ، فتناوله بعض القردة فضرب به الأرض فمات »

فهل يخلى اذن هذا المعمعان ؟ لا . من الرجولة أن يكون المرء شرطيا أو سارقا ، وليس من الرجولة أن يكون هو المسروق منه . إذن فهل ينضم الى بطانة الباشا ؟ لئن فعل فستكون له الصدارة بينهم بعد أن أثبت أنه يستطيع أن يكون عدواً كبير الخطر .

ولكن لم يكون هو الذى يلتقط الفتات المتساقط من المائدة ؟ بم يفضله الباشا ؟ أبثروته . إن الباشا ينتقل إلى الحقل فى سيارة فخمة أما هو فينتقل على أتان . ولنفرض أن الباشا ينتقل فى طائرة وانه هو يمشى على قدميه ، فما أهمية ذلك ؟ هل الثروة هى التى تحدد قيمة الانسان ؟ هنالك طاهرات كثيرات أثرين

واصبحن ذوات غنى فهل هن أفضل منه ؟ . من يدرى ! لعلهن كذلك ! ولم لا ؟

أحس بهذه الحيرة تلذعه بنارها لذعا وأخـذ ضميره الخلقى يهبط الى الصفر ، ومع ذلك وبالرغم من منطق الحوادث والمشاهدات الذى كان يفحمـه ويوشك أن يقضى على مبادئه ، لم يكن يسمح لنفسه أن ينتهى إلى هذه النهاية . لقدكان هنالك شيء آخر لا تثبت أمامه مثل هذه اللحظات ، شيء يسيطر على كيانه ، شيء أقوى من الشكوك والوساوس وأقوى من البراهين والقضايا المنطقية وأقوى من الميل إلى الراحة والاستمتاع ، شيء ليس هو الرغبة فى الانتقام ولا هو غريزة النضال ولا حب الزعامة ولا الشعور بالواجب ولا الاشمئزاز من التهريج ولا قوة الاندفاع فى الاتجاه الذى شب مسوقا فيـه ، ذلك الشيء هو الذى يسخرنا جميعـا لأتمام إرادة التاريخ ويجعلنا نلعب الأدوار التى تتكون منها قصة البشرية

وقد جعله هذا الشيء يتلمس سبباً ينقذ به نفسه من وساوسها ويرفع مستوى ضميره الخلقى . إنه يريد أن يتجه بروحه نحو شيء ينقذها كما يتجه المسيحى نحو الصليب والمجوسى نحو النار .

لو أنه كان فى القاهرة لالتمس مشاهدة رواية سينمائية حافلة بالبطولة والنضال أما فى البلدة فليس أمامه سوى مكتبته فاتجه إلى رف الكتب العربية ومر عليه بنظرة عابرة وابتسم ابتسامة الخيبة ثم قصد إلى رف الكتب الأفرنجية فوجد بغيته. تلك روايات دوستويفسكى وتولستوى وغيرهما تعرض صورا لأشخاص أعظم نفسا وأسمى روحا من أولئك الذين يراهم فى مصر ، وتلك روايات أبتون سنكلير تقدم نماذج للرجال المجاهدين ذوى العزم والمتانة الخلقية ، وأولئك أيضا رجال لا مثيل لهم فى مصر . لقد تجمعت فى ذهنه فى لحظـة واحدة قصص أولئك الأبطـال الذين ورد ذكرهم فى هذه القصص . إنهم أبطـال حقيقيون يوجد منهم كثيرون فى البلاد التى تسطع عليها شمس العلم والحرية . ثم أرجع هذه الروايات مكانها وأخرج رسالة صغـيرة من الرسائل التى تنشرها بعض الجمـاعات المناضلة فى أوروبا وأخذ يتصفحها فلمس فيها الأيمان الراسخ بصحة العقيدة والأمل

البالغ حد اليقين بالفوز القريب . لقد أنقذته هذه الصفحات من أزمته النفسية . وأعادت اليه ثقته بنفسه وبالمستقبل فصحت عزيمته على المضى فى العمل بهمة أكبر والسير فيه بخطى أوسع

٢٥

القصاص

قويت حركة الفلاحين بعد ان جاءهم قائد يوحد صفوفهم ويسدد خطاهم نحو تحقيق أغراضهم ، فأصبحوا أناسا غير الذين كانوا بالأمس ، يرفضون العمل بالأجر البخس ، ويصرون على أن يسمع رأيهم فى تحديد قيم الايجار ، ويرغمون الدائرة على القيام بواجباتها نحوهم على أكمل وجه ، ويراقبون حساباتهم لديها مراقبة الند للند

أدت يقظة الفلاحين الى نقصان الكثير مما كان يستنزفه الباشا من أموالهم ، فصبر على ذلك حيناً وهو يتململ ويتأفف ويحاول ما استطاع المحاولة أن يوقع بينهم التفرقة ملوحاً للبعض بمصالح فردية ، ولكن صبره نفد وحالته ازدادت حرجا فقرر أن ينقلب من حالة الدفاع الى حالة الهجوم وصار يكيل لهم الأهانة تلو الأهانة ويستخدم سلطانه الاقتصادى فى إجاعة كل من يقف منه موقف الرجولة ، وقد فوجىء الفلاحون بهذه السياسة الجديدة الهجومية ولم يكونوا متأهبين لمقاومتها فخنع الكثيرون منهم وثبت القليلون فى وجهه فكانوا هم هدف نقمته ، وعمد آخرون الى مقاومته بالتخريب (سابوتاج) فجعلوا يفسدون أعماله الزراعية فيطلقون المياه على زرعه الخاص حين يكون فى حاجة الى الصيام عن الماء ويبذرون فى أرضه التى يزرعها على نفقته ـ بزور الحشائش والزوان لتنمو وتقضى على النباتات المزروعة ويجرون العمليات الزراعية المختلفة على أسوأ الوجوه وفى أقل الأوقات مناسبة ، على أنه كان بينهم نفر حاد المزاج متطرف التفكير لم يعجبه هذا النوع

من المقاومة فاتفقوا على ان يضربوا الرجل فى الصميم ، وكان ابنه قد بالغ فى اعبث والفساد ،فوجدوا أن يقتصوا فى شخصه منه ومن أبيه

وأدمى مقتل البك الصغير فؤاد أبيه وحطم الغاية التى كان يعيش من أجلها ، أدمى ذلك القلب الذى كان يتغذى بدماء الفلاحين والذى كانت كل نبضة من نبضاته طعنة فى صدورهم البادية العظام وضربة سوط تلهب ظهورهم المنحنية العارية. الآن فقط أصبح ذلك القلب الصلد يتلوى من الألم وقد كان أعصى من أن تهزه آلام بلدة كاملة وأوجاع شعب برمته . لقد كان الأب ينهب الألوف من عشيرته ليترك لابنه ثروة جمة ، وكان يقسو على الفلاحين حنانا بابنهويذلهم اعزازا له ، فلما قضى الابن كانت فجيعة الأب فيه لا تماثلها فجيعة . فقد ذهبت جهوده وآثامه هباء وانهار صرح أحلامه بعد أن قضى العمر يعلى فى بنائه ، وأصيب فى ابنه ، وكان يحز فى نفسه عرفانه بمسئوليته فى ذلك ، فاشتعل شعره شيبا وأخذ الداء ينخرعوده

لو انه كان اتعظ مما أصاب ناظر زراعته وناظر الزراعات المجاورة لما اشعل النيران التى قضت على ابنه الحبيب

٢٦

ليل يولى وفجر يبزغ

جلس الباشا على فراش المرض وحوله عدد عديد من أهل البلدة . لقد كان يشعر بالموت يتمشى فى أوصاله ويقضى عليه عضوا فعضوا ، وكان يحس بحاجة الى أن يعترف لضحاياه وخصومه كما تعترف الكاثوليكية للقسيس

كان الجميع واجمين صامتين ، لا احتراما للباشا بل للموت الذى يدب فى أعضائه ويسرى فى عروقه ، وقال الباشا بصوت خافت متخاذل : ها أنا ذا اليوم على فراش موتى ، اراجع فى ذاكرتى صفحة حياتى

لقد كانت أرض هذه البلدة حين قدمت اليها خرابا يبابا فأصلحتها ونظمتها ،

وأقمت فيها هذا القصر المنيف الشامخ : كانت الآلات المستخدمة فيها هى الآلات البدائية التى كان يستعملها أجدادنا واسلافنا قبل آلاف السنين فجلبت بدلها أحدث ما توصل العلم الى اختراعه من الآلات ، فأصبح الفدان يحرث فى أقل من ساعة بعد أن كان يستغرق نحو اليومين

هذه أمور ينبغى أن تذكر فى مآثرى اذا ما ورد ذكرى فى المستقبل على السنتكم . وانى لأعرف انكم لن تنسوا انكم لم تفيدوا من كل هذا الترقى شيئاً محسوسا ، فأن منازلكم لم تتحسن ولم يزدها شموخ قصرى بجوارها الا هوانا وأجوركم لم تزدد رغم تزايد غلاء حاجيات المعيشة ، وساعات عملكم لم تنقص رغم استخدام الآلات الموفرة للوقت ، ومستوى معيشتكم لم يرتفع رغم وفرة ما غدت تنتجه الأرض

انى لأرتاع ويتملكنى الرعب عند التفكير فى جسامة الأموال التى انفقتها فى التظاهر بالثراء وفى اللهو والمجون وفى المضاربة والمقامرة ، تلك الأموال التى كنتم أنتم فى مسيس الحاجة اليها ، بل انى لتعترينى رعدة الاشمئزاز عندما أذكر أن جزءا من تلك الثروات التى بعثرتها فيما لا خير منه كان كفيلا بأن يدفع عنكم فتكات المرض ويذود عنكم متاعب الفقر ويقشع عن أبنائكم ظلمات الجهل ، ولكنى كنت أنانياً أثرا قبل أن أكون أنسانا ، فصرفتنى الأثرة عن واجباتى نحو الغير وأعمانى الجشع عما فيه الخير

وطالبتم بالقليل من حقوقكم فتجاهلت شأنكم وألححتم فى المطالبة فأخذتنى العزة بالأثم ، وحملتنى الكبرياء على مناصبتكم العداء . لم أكن أحسب العاصفة ستهب بهذه السرعة وهذه القوة . غرتنى كثرة أموالى فلم أقم وزنا لكثرة عددكم ، وفاتنى أنكم نظمتم أموركم وجمعتم شملكم ووحدتم جهادكم فأصبحتم غير ما كنتم

لقد كانت الحرب خسارا علينا جميعاً اذ فقدنا فيها الأموال والأرواح والراحة والسلام ، فليتنا كنا عدنا الى الوفاق قبل أن يستفحل أمرها

وأنت أيها المأذون . لقد جنيت على وعلى الفلاحين بتضليلك وتأويلك ، ولم تراع

الا مصلحة نفسك فقبحاً لنفسك وسحقاً . لقد أزفت ساعة الخلاص من مخادعاتك وسماع سخافاتك وتلفيقاتك

ياأخوانى . أسقطوا هذا الرجل من اعتباركم ، فقد ظل طوال عمره ينصب الأشراك لى ولكم ، ويعيننى على باطلى بدل أن يعيدنى الى صوابى

أيها الرجل الدنس . لن يحق لك بعد الآن أن تلج هذا المكان ، فأغرب عن وجهى

وأنت ياعمدة . لقد أتيت بك من عرض الطريق وعينتك فى منصبك لأتخذ منك خادما لرغباتى وعبداً لمآربى وأغراضى . فأنا المسئول عنك وعن آثامك ، كما أنى أنا المسئول الآن عن اراحة الناس منك ومن شرورك . لقد استغللت النفوذ الذى منحتك إياه شر استغلال وعشت على حساب أهل البلدة دون أن تقدم لهم خدمة تستحق عليها أجرا . إن جرائمك لقمينة أن تقودك الى محكمة الجنايات وإن آثار تلك الجرائم لباقية ولدينا عليها الأدلة القاطعة ، فأخل منصبك لمن يختاره الأهلون وقدم استقالتك الآن وأرحنا من أحكامك السخيفة وتدخلك اللئيم فى شئون الناس

وهنا لم يسع رجل الحكومة المكبل بجرائمه إلا أن ينزل على إرادة سيده وشريكه السابق فوقع على الاستقالة التى كان الباشكاتب قد أعدها فى يده ، وانسحب من ذلك المجتمع كما انسحب رجل الدين من قبل

وقال الباشا : هاأنتم قد خلصتم من عدوين لدودين من أعدائكم كانا يعيشان على إدامة الحرب بينى وبينكم . وقد عملت لأنقاذ الحالة على قدر المستطاع . ثم أومأ الى الباشكاتب أن يناوله ورقة الوقفية ، وتابع الحديث : إن الفضل فى ثرائى هذا راجع اليكم قبل سواكم ، فأنا أرد اليكم الآن ما بقى من الأموال التى جمعتها بوساطتكم ، وليتنى رددتها اليكم قبل الآن ، فأن مرضى كان يمنعنى عن الانتفاع بها مهما تضخمت ، فقد كان الداء يفتك بى على مهل . لقد كنت محكوما على بالموت

ولكنى ظللت أعمل على إخفاء هذه الحقيقة عنكم إلى أن حل الوقت الذى لا محل فيه للخفاء .

وتناول الورقة بيده وشخص اليها ببصره ثم قال : لقد وقفت أراضى جميعها على هذه البلدة فأوصيت أن يستخدم ريعها فى تشييد منازل صحية مستكملة وسائل الراحة تؤجر لكم بأجر ضئيل ، وفى اصلاح طرقات البلدة ، وتجهيزها بمولد يمدكم بالتيار الكهربائى للانارة وإدارة الأعمال الزراعية والصناعية ، وفى تشييد مستشفى ومدرسة ودار « للسينما » ، وأوصيت بأن تؤجر هذه الأراضى الزراعية لكم بأجور زهيدة

وقد اخترت عبد الخالق ناظراً على الوقفية كلها . لقد كنت فيا مضى عدواً له ولكنى كنت أحترمه فى نفس الوقت ، أما المأذون والعمدة فكنت أستعين بهما ولكنى لم أكن لهما فى نفسى ذرة من الاحترام

أى عبد الخالق . حاذر أن تهدم فى آخرتك ما بنيت فى أولاك لقد كنت لاتقيم للمصلحة الشخصية وزناً إزاء المصلحة العامة ، فامض على هذه الخطة ، ولا تميز فى معاملتك بين انسان وآخر الا بقدر استحقاقه ونفعه لبنى بلدته ، لقد كنت أنا أثير البغضاء بين أهل البلدة فانشر أنت الحب بينهم . إنى لا يخامرنى شك فى أنك فاعل هذا ، فان طبيعتك تأبى عليك غير ذلك وعدا هذا فأن أهل البلدة قد أصبحوا الآن يدركون حقوقهم ولا يفرطون فى شىء منها .. ياأخوانى . أرجو أن أكون قد وفقت لختام حسن لحياة شقية ، فاصفحوا عنى فقد كفرت بآلامى عن جرائمى

وكأن القدر المحتوم لم يكن يمد فى أجل الباشا إلا بمقدار ما يقضى هذه المهمة فأنه ما كاد يتم حديثه حتى بدا عليه التخاذل والأعياء واضطربت أنفاسه ثم لفظ النفس الأخير

توفى الباشا وولى عهده . وأمر عبد الخالق بالاستغناء عن الباشكاتب وغيره من زبانية العهد المنصرم . ثم جمع الفلاحين فى صباح اليوم التالى ،

وخاطبهم قائلا :

قد انقضى عهد العذاب والألم ، ونحن نبدأ الآن عهدا جديدا نأمل أن يكون جزيل الحسنات وفير الخيرات ، عهداً لا يستغل فيه امرؤ امرءا ولا يستعبد انسان انسانا ، عهدا تتاح فيه المساواة فى الفرصة للجميع فيبدأ الجميع سيرهم من نقطة واحدة ثم يتقدم كل امرىء فى الحياة حسبما يبذل من جهد ، فينال كل من يعمل على قدر ما يعمل

فلننبذ كل ما ولدته الحياة القديمة بيننا من الحزازات ولنكن جميعا إخوانا

ما أجمل شمس اليوم وما انضر هذا الربيع . لقد عشتم الى الآن محرومين من الابتهاج والاستمتاع ، فهلموا بنا الى حقولنا وأراضينا نستنشق نسيم الحرية

لقد كافحنا طويلا وضحينا كثيرا للوصول الى ما وصلنا اليه ، فلنحافظ على ما حصلنا عليه بأخلاصنا للمبادىء التى اجتمعنا حولها وبتضافرنا وتضامننا فى كل ما يختص بسعادة مجموعنا ، ولنعوض باجتهادنا ما ضاع علينا فى الأعوام الماضية حتى لا نبقى فيما نحن فيه من التأخر ، ولنستغل بعض الوقت الذى سنوفره ، فى الاستزادة من العلوم والمعارف ، وليكن رائدنا التعاون وشعارنا : لا استغلال ولا استعباد ولا خنوع ولا عبودية

تمت

أخطاء مطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٠	١٠	الصالات	الصلات
٣٢	١	رسه	رأسه
٤٠	١٩	صالح	صالحاً
٤٥	١٤	استشار	استشاره
٥٠	١٧	معقول	معقولا
٥٦	٢١	الساعة	السادسة
٦٣	٦	النطقه	النقطة
٦٥	٩	قوله	على قوله
٨١	٢٣	مما	ما
١١٣	٩	يتردز	يتردد
١١٤	٣	إذ	إذا

مطبوعات أخرى للمؤلف

زراعة الكتان : بقلم عصام الدين حفني ناصف
علم الحيوان العملي (لطلبة الجامعة) : بقلمه مع آخرين
تطور الزراعة وارتقاؤها : بقلم المستشار فريدريش أربو
النشوء والارتقاء : بقلم الأستاذ الدكتور هرمان كلاتش
النور يضيء في الظلام : درامة اشتراكية بقلم ليوتولستوى
الزوج الأبدى : للقصصي الروسي فيودور دوستويفسكى
الاشتراكية الحديثة : بقلم النائب الدكتور لودفيج كسل
التجديد الاجتماعي : بقلم عصام الدين حفني ناصف
حركة العمال والاشتراكية الديمقراطية : بقلم باول كامفماير
مبادىء الاشتراكية : بقلم عصام الدين حفني ناصف
المسألة الاشتراكية : بقلم عصام الدين حفني ناصف
البترول : قصة عن نضال العمال بقلم ابتون سنكلير
مجموعة قصص روسية : لتولستوى وجوركى (معدة للطبع)
محقرون ومهانون : لفيودور دوستويفسكى (معدة للطبع)
نظرية التطور : بقلم عصام ناصف (معدة للطبع)

